فلسفة

إميل سيوران

دموع وقدّيسون

ترجمة: عبد الوهاب ملوح

مكتبة

صفحة
7

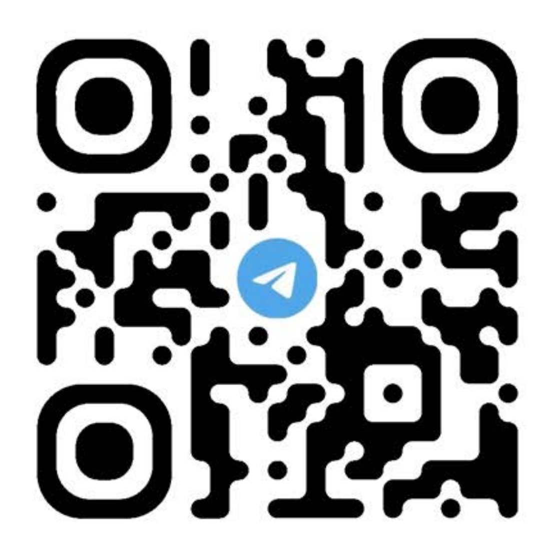
دموع وقديسون

لن ننسى تشرين . . 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa





كتاب

دموع وقديسون

المؤلف

إيميل سيوران

الطبعة الأولى :2020

الترقيم الدولي

978-603-91331-5-5

رقم الإيداع

1440/10304

E-mail: info@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696



Des larmes et des saints

Emil Cioran



دموع وقديسون

تأليف

إيميل سيوران

ترجمة: عبد الوهاب الملوح



مقدمة المترجم



«دموع وقديسون» هو الكتاب الرابع لإيميل سيوران بعد «على مرتفعات اليأس» و «كتاب الأوهام» و«تجميل رومانيا» وقد ألف سيوران «**دموع وقديسون**» سنة 1937 وعمره 25سنة غير أنه أعاد صياغته بالكامل سنة 1986 حين قامت الشاعرة الرومانية ساندا ستولوجان بترجمته إلى الفرنسية ويواصل سيوران في هذا الكتاب الذي جاء في شكل نص واحد كتلة مضمومة بلا فقرات ولا فصول ولا تقطعات فهو فكرة واحدة قام سيوران بتفكيكها والتعمق في تحليلها، والتي شرع في طرحها منذ كتابه الأول «على مرتفعات اليأس » تتعلق بالوجود والعدم والدين والفن عموما محافظا على الأسلوب نفسه في الكتابة الذي يتميز بالجمل القصيرة المكتنزة المشحونة الدلالات، والتي تأتي في شكل التماعات برقية، مكثفة مقتصدة في معجمها اللغوي لا تعتمد الاصطلاحات الفلسفية المعهودة

عند الفلاسفة ولا توغل بعيدا في التحليل هو «التفلسف شعريا» فسيوران يسعى لتحفيز خيال القارئ وعقله من خلال أفكار يصوغها في شكل صور شعرية وهكذا كان رأي مترجمة هذا الكتاب حين قالت «هناك عند كل كاتب صورة مفتاح، تستجيب لوسواس داخلي عميق وكاشف».

يثبت سيوران في هذا الكتاب أنه يواصل مشروع نيتشه ومن قبله شوبنهاور لكن ليس بمنهج الكتابة نفسه ولا الطرح ذاتهُ، إذ لا يرى سيوران فرقا بين الفلسفة والشعر بل إنّه يعلي كثيرا من مقام هذا الأخير بما أنه فن سام بما يتوفر عليه من إمكانيات قادرة على شحن الروح بطاقات إيجابية من شأنها أن تحرر الكائن من سلبيته الذهنية وعاطفته الانفعالية شأنه في ذلك شأن الموسيقى والفن التشكيلي وهو ما جعله كثيرا ما يعود في هذا الكتاب لذكر شعراء أو موسيقيين أو رسامين تركوا بَصْمَاتِهم في التاريخ.

لقد جعلت الكنيسة من «القديس» وظيفة إدارية يتم الارتقاء إليها من خلال مناظرة داخلية تستوجب عدة شروط بل و يتم تطويب الراهب قديسا على مرحلتين وكما لو أن المرحلة الأولى هي مرحلة تربص في القداسة ويمكن للكنيسة أن ترفض الترشح للتطويب كما هو الحال بالنسبة إلى الراهبة المتصوفة كاترين إيمريش، ومن خلال هذا التمشي أفرغت الكنيسة

«القديس» من كل ما هو علاقة روحانية شفافة صادقة مع الله بما فيها تقرب روحاني بين المتعبد وربه وحولته إلى مجرد رتبة كنسية إدارية عالية ومن هنا يأتي موقف سيوران من القداسة بمفهومها الكنسي، ليستعرض فكرته عن المسيحية والمسيحيين وفكرته عن الله، وهو في كل هذا يعمق تحليل فكرته عن الوجود وعن الكائن ويرى أن الدين مثَّل عائقا حقيقيا منع تطور الإنسان الفكري وصادر كل أدوات تحليله المنطقية كما اغتال فيه جوهر روحه الداخلي عكس الفن الذي هو الوسيلة الوحيدة لشحن الروح بطاقات ايجابية من شأنها أن تجدد تطلع الإنسان للحياة والوجود عموما.

يرى سيوران أن الكنيسة بسياساتها المختلفة عبر الأزمان قد قتلت الله في الإنسان وأن الإنسان الذي مازال متعلقا بالله صار يبحث عنه في دموعه ويتقرب إليه من خلالها وهو في هذا يتفق مع شاتوبريان الذي قال ذات مرة:

«يرى المسيحيُّ نفسه مثل مسافر يعبر الأرض في وادي الدموع ولا يرتاح إلا في قبر».

ولهذا السبب يرى سيوران أنّه من الأجدر وزن الدموع يوم الحساب الأخير عوض وزن الأعمال.

كتاب صادم يعيد النظر في عدة مسلمات وبداهات في علاقة الكائن بالله.

ليست المعرفة هي التي تُقرِّبنا من القديسين، إنما هي يقظة الدموع التي تنام في أعمق أعماقنا. ومن خلال الدموع وحدها نعبر نحو المعرفة ونفهم كيف يمكن للمرء أن يصبح قديسًا بعد أن كان إنسانا عاديا.

يتناسلُ الإنسان في الهذيان، وكل ما هو دون ذلك إنّما هو وهم محض ...

كيف لنا ألاّ نشعر بقربنا من القدّيسة تيريزا[1] التي تجلّى لها المسيح، نافذا إلى وسط الدّير ركْضًا، ثم راح يرقص في نوبة محمومة وهو يدقّ الطبل استدعاءً لأخواته حتى يشاركنه البهجة؟

وهي في السادسة من عمرها، شرعت «القدّيسةُ تيريزا» في قراءة حيوات الشهداء وهي تهتف «خلود! خلود!»؛ بعدها

(1). سانت تيريزا ديليزو: 1873-1897. وردة المسيح الصغيرة. رغم حياتها القصيرة جدا ووفاتها في سن الرابعة والعشرين غير أن المجمع الكنسي طوَّبها قديسة ثم منحها الدكتوراة .من أهم متصوفات القرن التاسع عشر ومن أشهر قديسات فرنسا قامت بإصلاحات في رهبنة الكرمليين . صدر لها كتاب بعد وفاتها بعنوان "حكاية روح" لاقى رواجا كبيرا وحصل على جائزة الأكاديمية الفرنسية.ترى أن بلوغ القداسة لا يتحقق عن طريق الأعمال الكبرى، بل من خلال الأعمال الصغرى، تلك التي قد تبدو أن لا معنى لها شرط أن يتم إنجازها حبا في الله.

قررت الذهاب إلى البربر للتبشير بالمسيحية ودعوتهم لاعتناقها، وهي رغبة لم تستطع تحقيقها، غير أن حماسها زاد وتضاعف حتّى إنَّ نار روحها لم تنطفئ إطلاقا، فهي إلى الآن تُدفئنا.

سوف أرضى بالوباء، نعمة؛ مقابل قبلة آثمة لقديسة.

هل يمكن أن أكون ذات يوم، نقيًّا جدا لأنعكس في دموع القديسين؟

غريب، كيف أفكر في أن العديد من القديسين استطاعوا أن يعيشوا معا في حقبة زمنية واحدة. أحاول أن أتخيل لقاءهم ببعضهم، غير أنه تنقصني الحماسة وسعة الخيال. لقد التقت القديسة المشهورة «**تيريزا دافيلا**»[2] والمحبوبة جدا من الجميع، وهي في الثانية والخمسين من عمرها ب «**سان جان دي لاكروا**»[3] وهو شاب مغمور وشغوف في الثانية والعشرين من عمره في ميدينا دال كامبو! التصوف الإسباني لحظة ألوهية في تاريخ الإنسانية.

من الذي يستطيع تدوين حوارات القديسين؟

---

(2). تيريزا دافيلا :1515-1582. راهبة و قديسة إسبانية وهي أول امرأة تنال لقب دكتورة الكنيسة الكاثوليكية. بادرت بإصلاحات جوهرية في رهبنة الكرمليين صحبة القديس جان دي لاكروا ألفت كتاب القصر الباطني وتشرح فيه المراحل السبع لبلوغ الصفاء الروحي.

(3).سان جان دي لاكروا: 1542-1591. راهب متصوف قديس إسباني من أهم المصلحين في رهبنة الكرمليين (الكرمليين تعود إلى جبل الكرمل بفلسطين والذي فيه عدة أديرة يتزهد فيها رهابنة يؤمنون أن النبي إلياس سيعود قبل عودة المسيح وذلك قبل يوم الحساب الأخير) وهو واحد من أهم شعراء العصر الذهبي في أسبانيا. له كتابات منها "الصعود إلى الكرمل"، "الليل المعتمة" من أهم ما قال "لبلوغ ما نعرفه، اعملوا على امتلاك كل شيء، اعملوا على أن تكونوا كل شيء، فلبلوغ كل شيء لا بد من التخلي عن كل شيء"

شكسبير المتأثر بالبراءة، أم دوستويفسكي الملائكي المنفي في أحد أنحاء سيبيريا.

سأظل طول حياتي أطوف حول نواحي القديسين.

في وقت ما؛ كان من الممكن مخاطبة إله خفي متى شئت، إلهٌ يُقبر تأوهاتك في عدمه. أما اليوم؛ ودونهما عزاء لنا، ليس لنا من نشكو له أوجاعنا.

قد يداخلنا الشك، أن هذا العالم كان قديمًا في الله؟

ينقسم التاريخ إلى قديمٍ يشعر الناس فيه بالانجذاب إلى العدم المختض بالألوهية، وإلى حديثٍ حيث لَيْسُ العالم محروم من النفس الإلهي.

لقد وهبتني الموسيقى الكثير من الجرأة في مواجهة الله؛ وهو ما ينأى بي بعيدًا عن التصوف الشرقي.

في يوم الحساب الأخير سوف يقع وزن الدموع فقط.

العيون لا ترى أي شيء. لقد أصابت كثيرا «**كاترين إيمريش**»[4] عندما قالت إنها لا ترى إلا بقلبها! فكيف إذن لا يمكن للقديسين أن يروا أبعد منا، فعندهم وحدهُ القلبُ يبصرُ؟

---

(4). كاترين إيمريش: 1774-1824. راهبة ومتدينة ألمانية، ظلت لسنوات عديدة ترى رؤى وفي هذه الرؤى رأت عذابات وآلام المسيح وظهرت في مختلف أنحاء جسدها ندوب هي نفس الندوب التي ظهرت على جسد المسيح أثناء صلبه قام الشاعر الألماني كليمنس برنتانو بتجميع رؤاها في عدة ملفات ومنها كتيب "تأملات" الذي أثار ضجة في الكنيسة وهو ما منع تطويب الراهبة كاترين قديسة.

الحقل البصري للعين محدود جدا فالعين تنظر دائما من الخارج؛ غير أن العالم موجود بالداخل والاستبطان هو الوسيلة الوحيدة لبلوغ المعرفة.

الحقل البصري للقلب؟ العالم، إضافة إلى الله، إضافة إلى العدم، يعني كل شيء.

مخالطة القديسين تشبه ملازمة الموسيقى والمكتبات.

بلا أعضاء جنسية نستطيع أن نضع غرائزنا في خدمة عالم آخر. فبقدر ما يمكننا المقاومة في القداسة نثبت أن غرائزنا بخير. وشيئا فشيئا تظفر إمبراطورية السماوات بفراغات حيويتنا. فالهدف من كل إمبريالية إلهيّة هو القضاء على كل حيوية.

حين تفقد الحياة اتجاهها الطبيعي تبحث لها عن اتجاه آخر. هكذا يمكن تفسير أن أزرق السماء؛ كان دائما موضع تسكع.

وهناك أيضا هذا: لا يمكن للإنسان أن يعيش في الفضاء دون دعم؛ وهذا النوع من الدعم، ترفضه الموسيقى بشدة. وهي، فن المواساة بامتياز فهي وحدها تفتح بداخلنا مزيدا من الجراحات أكثر من أي شيء آخر.

الموسيقى هي قبر اللّذات والغبطة التي تُكفِّنُنا.

«لا أستطيع أن أفرّق بين الدموع والموسيقى».

نيتشه

من لا يستطيع أن يدرك هذا على الفور، فهو لم يتمكن من العيش في حميمية الموسيقى. كل موسيقى حقيقية نابعة من البكاءات، فهي وليدة الندم على ضياع الفردوس.

ظلت «دراسات الكمال»[5] متوفرة وبغزارة، إلى حدود بدايات القرن الثامن عشر. أولئك الذين وهبوا حياتهم القداسة، وجدوا سلواهم في كتابة هذه الدراسات ، إلى درجة أن هذا الكمال ظل لعدة قرون وسواس الذين لم يرتقوا إلى مرتبة القديسين. أما الآخرون؛ القديسون الحقيقيون، فلم يكن يشغلهم أمر الكمال بما أنهم قد امتلكوه.

وفي زمننا هذا، يتم التعامل مع هذه الدراسات بحذر شديد ودرجة عالية من الازدراء. باختياره للتراجيديا ، تمكن الإنسان الحديث من التغلب على الندم لضياع الفردوس وأن يعفي نفسه من الرغبة في الكمال.

وهناك حقب زمنية أخرى، كانت خاضعة للرعب واللذات المسيحية أنتجت قديسين كانوا مدعاة لفخرنا. باستطاعتنا اليوم، أن نقدّرهم ونثمّن ما أنجزوه. وما اعتقادنا في كل مرّة أننا نحبّهم إلاّ ضعف من جهتنا يجعلهم أكثر قربًا منّا.

---

(5) . دراسات الكمال :مجموعة من الدراسات المتفرقة والنظريات قام بها علماء لاهوت وقديسين ورهابنة وفلاسفة مسيحيين لتفسير الأنجيل أو تحليل بعض جوانبه والتوسع في تحليل التجربة الروحية للمسيح وقد كان لها الأثر السيئ على النشوء الديني للرهابنة ومن هنا يأتي نقد سيوران لها باعتبار أن الإيمان لا يتم تلقينه ولا تدريسه.

حين يُهيمن الإحساس بالموت على بداية حياة ما، يتحوَّل الزّمنُ إلى ما يشبه الارتداد نحو الولادة، واستعادة مراحل الوجود. موت، حياة، شقاء وولادة هكذا يصبح تسلسل مراحل هذا النمو معكوسا. أليست هي حياة أخرى تلك التي تنبعث من تحت أنقاض الموت؟ بالحاجة إلى حب، إلى معاناة، إلى انبعاث، هكذا ننجح في الموت. ولهذا أصبحت التّجلّياتُ نادرة جدا.

في آخر الأمر، كان في مستطاعنا أن نعفي أنفسنا من وسواس القداسة. ويتفرَّغ كل واحد منا لمشاغله، حاملا نقائصه بكل فرح. تُخلِّف مخالطة القديسين وجعا عقيمًا، فمجتمعهم سُمٌّ تتضاعف حدَّته بمقدار عزلاتنا. أَلَمْ يُفسدونا حين أثبتوا لنا بالمثال أن الدلائل تؤدي إلى جهة ما؟ لقد تعوّدنا على التأقلم دون هدف، مفتونين بفائض أوجاعنا، سعداء بالتحديق في جراحنا.

ليس للموت معنى إلا عند أولئك الذين عاشوه بشغف. أن يموت المرء ولا شيء يخلفه وراءه!

الانفصال هو إنكار الحياة كما هو بالنسبة إلى الموت.

فذلك، الذي انتصر على الخوف من الموت نجح في حياته أيضا، هذه الحياة التي هي الاسم الآخر لهذا الخوف.

حتى لا ينقرض المتشردرن في أسِرَّتهم لا يدَّعون الموت.

وعلى طول هذا الاستعداد الذي من خلاله ينضج الحي بالموت، لن يأتي الموت إلا أفقيا. حين لا شيء يشدُّك إلى موضع ما، فأي حسرات قد تشعر بها في اللحظات الأخيرة؟ هل اختار المتشردون مصيرهم كي لا يشعرون بحسرات تعذِّبهم ساعة الاحتضار؟ ضالون في الحياة؛ يبقى المتشردون متسكعين في الموت.

طيلة كل الوقت الذي اشتغل فيه **هايندال**[6] على **أوبرا ميسي**[7] كان يشعر أنه محمول في السماء. وباعترافه هو لم ينزل مرة أخرى إلى الأرض إلا حين انتهى من مؤلفه. ومقارنة بباخ ، هايندال من هنا، من الأرض. فما هو ألوهي عند هذا فهو بطولي عند الآخر. الاتساع الأرضي هو النوتة الهايندلية بامتياز: تغيُّر للخارج. يُوحِّد باخ بين الرؤية الدرامية **لغرونوالد**[8] والباطن عند **هولباين**[9]؛ ويجمع هايندال بين ثقلِ **دورر**[10] وخطّيتهِ

---

(6) . جورج فريدريك هايندال: 1685-1795. موسيقار ألماني / انقليزي يُعتبر نهاية فن العصر الباروكي: اهتم أول الأمر بالأوبرا الإيطالية. ثم كرس بقية حياته للأورتوريو حيث تخصص في تأليف عروض موسيقية فورجوية دينية مستوحاة من الدين المسيحي ومن أهم مؤلفاته :إسرائيل في مصر وميسي.

(7) . ميسي: اوراتوريو موسيقي فورجوي شعبي ألفه هايندال سنة 1741 وتم عرضه أكثر من 36 مرة وقد استند فيه هايندال للانجيل والتوراة وهو ينقسم إلى ثلاثة أجزاء بعث المسيح. عذابات المسيح والخلاص ويمكن إدراج هذا أوراتوريو ضمن أهم الاعمال الموسيقية الروحية الصوفية.

(8) . ماتياس غرنوالد: 1470-1528رسام ألماني عمل كحفار آبار في الكنائس وخالط الرهابنة والقساوسة برزت موهبته كرسام من خلال التكثيف في التعبير والتناوب بين الألوان والنور في لوحاته ذات الطابع الديني التي يستوحي أغلب موضوعاتها من الأسطورة المسيحية وواقعية الألم الجسدي والروحي من أهم لوحاته "المسيح مُهان".

(9) . هانس هولباين : 1497-1543.ألماني من آهم رسامي عصر النهضة إلى جانب رافائيل ومايكل أنجلو. اتسم بالواقعية في معالجات الفنية التي هي مزيج من المدرسة الإيطالية والفلامندية من أهم لوحاته "السفراء".

وجرأة **بالدونغ-غراين**[11].

من المستحيل تكوين فكرة دقيقة في موضوع القديسين. هم يمثلون مُطلقا ليس من المستحسن التعلق به، ولكن لا يجب رفضه. كل موقف منا، هو محسوب علينا. فإن اتبعنا طائفة القديسين، ضاعت حياتنا، وإن ثُرْنا ضدهم، فإننا نختلف مع المطلق. رغم كل شيء، كنا سنكون أحرارا جدا لو لم يكن هناك قديسون! بعض الشكوك فقط! ما الذي ألقى بهم في طريقنا؟ سيصير من العبث إرادة نسيان الألم.

يترجم الأرغن القشعريرة الداخلية للرب. نتأله ويُغمى علينا في الأرغن؛وهو يقولب تموجاته.

نحيب كوني، صفصاف بكّاء...جراح الطبيعة والروح مفتوحة... والقلب البشري جرح الرب المفتوح.

أي شكل من أشكال النشوة الذي يحل محل الجنس لا معنى له بدون رداءة الكائنات. ولأن هؤلاء ليس لهم من سبيل للخروج من أنفسهم، ينقذهم الجنس مؤقتا. ويتجاوز الموقف

---

(10) . ألبرخت دورر:1471-1528.رسام ألماني له كتاب" رسالة في أبعاد الجسم الآدمي" بدأ حياته الفنية بتصوير رسوم للكتب واشتغل بوضع صور هامشية لكتاب الصلوات. نجح نجاحا كبيرا في رسم الأجسام العارية من خلال لوحته "حمام الرجال" كما اشتهرت أعماله في الحفر على الخشب التي صورت حياة العذراء وآلام المسيح. هو أول من رسم الأكورال في تاريخ الفن الغربي وهو من أوائل من اهتموا برسم البورتريهات كما درس الهندسة وله أول معاملة منهجية هندسية لتحديد كفاف الظلال الساقطة من أهم لوحاته" إنسان الآلام"، "الحواريون الأربعة".

(11) . هانس بالدونغ:1484-1545 فنان ألماني متعدد المواهب.إضافة إلى لوحاته الفنية، اهتم بالمنسوجات والزخارف الأسطوري والحفر على الخشب، طوّر أسلوبا متفردا في الرسم مليأا بالألوان والتعبير. عالج في لوحاته موضوعات السحر والشعوذة من لوحاته "الساحرتان".

دلالته الأولية- هو انتصار على الحيوانية، فالجنس على المستوى الجسدي هو الباب الوحيد المفتوح على السماء.

وَهُمْ تحت جلد السياط يرفعون كتل الحجارة الضخمة، لكن بالنظر إليهم يدخل العبيد الخلود من ذلك الشعور بولادة الفراغ حول الأهرام بحكم مرور الزمن! لقد كان آخر عبد أقرب كثيرا للخلود من أي فيلسوف غربي! لقد كان المصريون يعيشون تحت نشوة الشمس والموت. أما السماء، بالنسبة إلينا نحن فقد كانت بَلاطة جنائزية!

يرزح العالم الحديث تحت إغراء الأشياء المنتهية.

هل سيأتي يوم لن أستطيع أن أذكر فيه إلا الله؟ فالرجال والقديسون هم أنفسهم لا اسم لهم. وحده الله له اسم. لكن ما الذي نعرفه عنه، عدا أنه يأس يبدأ حين ينتهي كل الآخرين.

وحده الفردوس أو البحر بإمكانه إعفائي من اللجوء إلى الموسيقى.

تُلْقي الأحزان على الروح بظلال الرهبانية. هكذا نبدأ في فهم القديسين... لقد أرادوا أخذنا نحو أقصى حدود أشجاننا،غير أنهم لم يستطيعوا - وهكذا تركونا عند منتصف الطريق، في قلب المرارات والحسرات.

لقد قَرَّبت الأمراض السماء من الأرض. ومن ونهما كانا

سيتجاهلان بعضهما. فالحاجة إلى المواساة تجاوزت المرض، وفي نقطة التقاطع بين السماء والأرض أنجبت هذه الحاجة، القداسةَ.

هناك من الناس من زيّن موته. فالموت بالنسبة إلى هؤلاء مسألة شكل. لكن الموت مادة ورعب. فلا يمكن أن نموت برشاقة دون الاحتيال على الموت.

وكلما فكرت في الرعب الحقيقي من الموت عند **تولستوي**(12)، أفهم ذلك الحس الداخلي بالنهاية عند الفيلة.

حدود كل ألم إنما هو ألم أكثر قسوة.

لم يتصالح الناس مع الموت إلا لتجنب الخوف الذي يسكنهم منه، لكن بدون هذا الخوف لم يعد للموت أي قيمة. فالموت لا يوجد إلا من خلاله. وتنبع الحكمة من الاتفاق مع الموت، في مواجهة النهايات الأخيرة، الموقف الأكثر سطحية من كل شيء.

لقد أصيب **مونتاني**(13) بدوره بالعدوى ولن نستطيع دون ذلك أن نفهم كيف يفتخر بنفسه وهو يقبل الأمر المحتوم.

---

(12) . نيكولايفيتيش تواستوي:1822-1910. كاتب روسي برع بشكل باهر في رسمٍ متنوع للمجتمع الروسي من وجهة نظر تحليل شخصي متزهد، نابعة من تصور ص، في احتجاجي بأسلوبه المتفرد بَصمته على الكتابة السردية وتأثر به الكثير من الكتاب في روسيا وخارجها من أهم مؤلفاته" الحرب والسلم" و "آنا كارينينا".

(13) . ميشيل مونتاني :1533-1592. فيلسوف فرنسي من رواد المقالة الحديثة بدأ حياته شكوكيا وكان شديد التأثر بالرواقيين. عالج من خلال "محاولاته" الفلسفية المتعددة مشكلة العقل وقصوره في الإجابة عن سؤال "ما الذي أعرفه؟" .تدور أغلب موضوعات كتاباته حول التسامح.

أما الذي انتصر على الخوف فيستطيع أن يعتبر نفسه خالدا، تماما مثل الذي لم يعرف الخوف. غير مستبعد، أن الكائنات قد تغيب في الفردوس، لكن حين لا تعرف الخوف فإجمالا لن تموت. الخوف هو موت في كل لحظة.

الموت الهادف، الخارجي ليس له أي معنى، بالنسبة ل **ريلكة**(14). ونفس الفكرة عند **نوفاليس**(15).

وفي النهاية، هل هناك شاعر مات مرة واحدة؟

إنني مثل **أنتَاي**°(16) في يأسه. يتضاعف يأسي كلما لمست الأرض. آه! لو أمكنني أن أنام كإله لأموت لنفسي وحدي!

النسيان الحقيقي – هو النوم في الألوهية.

مولاي، ألست سوى خطأ القلب، كما هو شأن هذا العالم خطأ الذهن؟

---

(14) . راينار ماريا ريلكه: 1875-1926من آهم شعراء القرن الثامن عشر. بدأ مسيرته الفنية سكرتيرا عند النحات المشهور رودين الذي كان له وتولستوي في مرحلة متأخرة تأثير بارز على أسلوبه الفني وقد كان في نفس الوقت مهتما بالكتابة الشعرية، تعبر كتاباته عن ظمأ شديد للحياة ومقاومة الخوف من الموت له عمدة مجموعات شعرية بلغ في بعضها مرتبة التأمل الصوفي و الادراك الحدسي منها "في انتظار طريق الحياة" و "كتاب الساعات " و "كتاب الصور" آما روايته السير الذاتية "الكراسات" فيذكر فيها رحلاته المتعددة ومقاومته للمرض.

(15) . فريدريك فون نوفاليس:1772-1810.فيلسوف وشاعر ألماني. كان لموت خطيبته صوفي التأثير الكبير على كتابته، إذ عاش تجربة صوفية روحية متفردة وقد نتج عن هذه التجربة نص شعري عميق" نشيد الليل" يعتبره النقاد من أهم النصوص الشعرية في ذلك الوقت، مزج فيه نوفاليس بين التصوف والمعالجة الاستعارية للطبيعة. شاعر سماوي إشراقي ينحو في اتجاه اللامرئي وغير المأهول يقول "لابد من رومنطقة العالم" من أعماله الشعرية الأخرى"النشيد الديني" .ورواية غير مكتملة رأى فيها النقاد تجديدا في السرد.

(16) . آنتي: عملاق نصف آلهة أمازيغي ابن غايا ربة الأرض من بوسيدون آلهة البحر كان يدافع عن بلاده ليبيا بقطع رؤوس الغرباء. هزمه هرقل.

وما إيمانا بالله إلا لتجنب الحوار الداخلي المُعذِّب في العزلة. ومن الذي سوف نتوجه بالكلام إليه؟ وهو على ما يبدو يقبل الحوار ولا يؤاخذنا لاختيارنا له كمبرر مسرحي لانهياراتنا.

لقد تعلقتُ بالمظاهر حين أدركت أنه لا وجود للمطلق إلا في التخلي.

بما أن القرون الوسطى استنفدت محتوى الخلود، وهبتنا الحق في أن نحب الأشياء العابرة.

المسيحية كلها ماهي إلا أزمة دموع، لم يبق لنا منها غير طعم مر.

وبنهاية القرون الوسطى توفرت بغزارة كتابات مجهولة تحت عنوان «فن الموت» ونجاحها كان غير مرغوب فيه. وهل يمكن لموضوع مماثل أن يؤثر في أحد الآن.

لا أحد يهتم بموته، ولا أحد يعتني به، هكذا يفلت منا الموت حين يأخذنا على حين غرة.

لقد عرف القدامى كيف يموتون. الارتفاع فوق الموت هو المثال الثابت لحكمتهم. وأما بالنسبة لنا نحن فالموت مفاجأة مرعبة.

لقد عرفت القرون الوسطى الشعور بالموت بكثافة متفردة. غير أنه خلال هذه الحقبة من الزمن وبطريقة فنية مخصوصة تم

إدماجه ضمن النسيج الحميمي للوجود. لا أحد كان يرغب في غشه.

أما نحن، نحن هؤلاء، فنريد أن نموت بدون خفايا الموت.

لقد برز الوعي بسبب تلك اللحظات من الحرية والكسل.

حين تستلقي، وعيناك مثبتتان في السماء أو حول نقطة ما، يمتد بينك وبين العالم فراغ لا يمكن للوعي أن يوجد من دونهِ. فالجمود الأفقي هو الشرط الضروري للتأمل. ودونما أدنى شك فإن هذه الوضعية لا تتيح تصور أفكار مُبهجة. لكن التأمل هو التعبير عن عدم مشاركة، كما هو عدم تسامح، إنّهُ إنكار للوجود.

لقد استثمر الله كل عقد نقصاننا، بدءا بتلك التي تمنعنا من الإيمان بالأرباب.

حين ابتلعنا العالمَ وبقينا وحدنا، فخورين بإنجازنا. ظهر الله منافسا للاشيء كآخر إغواء.

وإن ظل الجنس البشري يقاوم دون أن يتعفن في أعماق المسيحية فهذا يبدو لي الدليل الوحيد على ميله الميتافيزيقي. غير أن إنسان اليوم ما عاد يحتمل رعب النهايات الأخيرة. لقد شرَّعت المسيحية مخاوفه وجعلته تحت ضغط دائم. وحدها استراحة بملايين السنين قادرة على إنعاش هذا الكائن الذي

أتلفته سماوات عديدة.

مع فجر عصر النهضة بدأ خسوف زمن الخضوع. ومن هنا جاءت هالة الإنسان الحديث التراجيدية. لقد كان القدامى راضين بمصائره. أما الإنسان الحديث فلم ينحن لهذا التنازل. إن احتقار المصير أمر غريب عنّا، فنحن تعوزنا الكثير من الحكمة لئلاّ نحبّ القدرَ بشغفٍ موجع.

الحدث التاريخي الوحيد في الفردوس هو هبوط آدم إلى الأرض.

الانشغال بالقداسة؛ مصارعة المرض بالمرض.

هل امتلكُ في داخلي ما يكفي من الموسيقى كي لا أندثر؟ هناك أنغام موسيقية (آداجيو) لا يمكن أن نتعفن أبدا بعد الاستماع إليها.

وحدها حالات الذهول الصوتية تبعث بداخلي أحاسيس الخلود. هناك أيام خارج الزمن نكون فيها فريسة لتذكرات مبهمة نجهل من أي آفاق أخرى جاءت ! فمن غير المعقول البكاء على الزمن.

لقد فعل الخمر أفضل مما فعلته علوم اللاهوت للتقرب من الله. فمنذ القديم كان هناك سكارى حزانى - وهل هناك غيرهم؟- تفرقوا على النساك والزاهدين.

هناك فترات نردُّ فيها كل شيء إلى الله. لكن يحدث أن يتملّكنا الخوف لحظة التفكير في أنّه قد كفّ عن الحضور. هذا العرضيُّ في المبدأ النهائي- فكرة ساذجةٌ في حدّ ذاتها غير أنها قائمة في الوعي-تملؤنا بِحَيرة عجيبة. أليس الله مجرد شغف هارب، مجرد موضة ذهنية؟

مازال البعض يتساءل إن كان للحياة معنى أم لا. وهو ما يدفع للتساؤل إن كانت محتملة أم لا. وهنا تتوقف المسائل وتبدأ الحلول.

ميزة التفكير في الله هو إمكانية أن نقول كل شيء بخصوصه. وكلما قللنا من ربط الأفكار ببعضها كلما كانت فرصة الاقتراب من الحقيقة وشيكة.

وإجمالا؛ يستفيد الله كثيرا من دائرة المنطق.

يؤكد كل من **شكسبير** **ودوستويفسكي** في داخلك الندم على أنك لم تكن قديسًا أو مجرمًا. هاتان الطريقتان للتدمير الذاتي...

لماذا يكتب القديسون بشكل جيد جدًّا؟ هل يرجعُ ذلكَ إلى أنّهم يستلهمون ويُوحى إليهم؟ والسبب؛ هو أنهم يستعملون أسلوبا متفردًا كلما شرعوا في وصف الله. فمن السهل أن يكتبوا وهم يصغون إلى وشوشاته. مؤلفاتهم هي في بساطة المافوق بشري، وبما أنهم لا يعالجون في كتاباتهم العالم فلا يمكن تسميتهم كتابًا. ولا نعترف بهم كذلك، لأننا لا نجد أنفسنا

فيهم.

نحن نحمل في داخلنا كل الموسيقى: فهي ترقد في الطبقات العميقة للذاكرة. كل ما يتعلق بالموسيقى هو شأن التذكر المبهم. من ذلك الزمن الذي ليس لنا فيه اسم، استطعنا أن نسمع كل شيء.

كل شيء هو موجود من قبل. فالحياة تبدو لي تموجًا بلا جوهر. والأشياء لا تتكرر إطلاقًا، غير أنه ليس من المستبعد أنّنا نعيش في انعكاس عالم قد مضى، نعمل على تمديد أصدائه المتأخرة. والذاكرة ليست مجرد حجة ضد الزّمن فقط، لكنها تذهب أيضا بخلاف هذا العالم الحالي، كاشفة لنا على نحو مربكٍ عوالم الماضي الممكنة وتتويجها من قبل الفردوس.

أن تنكفئ داخل الذاكرة يجعل منك ميتافيزيقيًّا؛ قدّيسٌ من يعودُ إلى الأصول.

جفاف القلب هو تعبير يعود دائما حين يستعرض القديسون الدلائل. لذلك يستجدون العفو كخلاص وأن يصبح توسّل المحبة هاجسا. لكن هل أن قلوبهم جافة لنقص في الحب فقط؟ إنّهم يخطئون حين يرجعون سبب هذا النقصان إلى تصحرهم الداخلي. لو عرفوا أنهم بذلك الجذب يدفعون ثمن لحظات متذبذبة النشوة، لأدركوا كم هم جبناء تجاه الله، ولَتَجَنَّبُوا ملاقاته! لست أرى سوى أنقاضا حول الانخطاف، ذلك لأنه

كلما طال وقتنا فيهِ (الله) إلا ووجدنا أنفسنا خارجنًا، وأيسنا ليست إلا خراب ذاكرة سحيقة.

إن ميزة نيتشه العظيمة هي أنّه كان قادرًا على الدفاع عن نفسه في الوقت المناسب ضد القداسة. ما الذي كان سيصبح لو ترك ميولهُ الطبيعية حرة على سجيتها؟ - سيكون **باسكال**[17] آخر ينضاف إليه كل جنون القديسين.

الاعتقاد في الفلسفة علامة صحية. أما ما هو غير ذلك فهو الشروع في التفكير.

افتقارنا للكبرياء هو ما يعرضنا للموت. وأساسا، المسيحية هي التي علمتنا أن نغلق أعيننا - نغض البصر- كي يجدنا الموت وديعين وخاضعين.

لأكثر من ألفي سنة تربينا على موت حكيم و مرتب. نموت في اتجاه الأسفل نطفئ في الظل جفوننا، عوض أن نموت بعضلات ممدودة، مثل عداء ينتظر ضربة الانطلاق، الرأس ممدودة، مستعد لاقتحام الفضاء والانتصار على الموت في كبرياء وفي وَهْمِ قوته! لطالما حلمتُ بموت طائش، متواطئ مع الامتدادات.

(17) . بليز باسكال : 1623-1662 فيلسوف وفيزيائي فرنسي ساهم في إيجاد اسلوب جديد في النثر الفرنسي. اخترع الآلة الحاسبة قلب نظام التفكير في عصره يشبه مسار تجربته مسار الفيلسوف نيتشه غير أن باسكال وعلى إثر تجربته الصوفية العميقة تحول إلى مفكر ديني وهو ما دعا البابا فرنسيس سنة 2017 إلى اقتراح تطويبه.

خلال ليالي الأرق الطويلة، ونحن نعود بالزمن إلى الوراء، نستعيد حالات الرعب وأفراحنا القديمة، نستعيد أحداث ما قبل تاريخنا، ما قبل ذكرياتنا. يعد لنا الأرق عودة للأصول وينتقل بنا إلى فجر بدايات الكائنات. يطردنا خارج الزمني وتفرض علينا الإصغاء لآخر ذكرياتنا،والتي هي البدايات الأولى. وفي هذا المحلول الموسيقي نتلف المقدمات، ونستنفد ماضينا. أليس لدينا الإحساس إذا بأننا موتى نحمل الزمن معنا.

وبقدر ما نقترب من التصوف يغيب الزّمنُ نهائيًّا من ذاكرتنا.

بقدر ما تكون الذاكرة في أوج حيويّتها وعافيتها بقدر ما تلتزم بالمظاهر وتنخرط فيها عرضي. تكشف لنا حفرياتها ملفاتٍ حول عالم آخر على حساب هذا العالم.

حين أفكر في لياليَّ، والعزلات المتعددة التي عشتها وعذابات هذه العزلات، أصبو للذهاب، وترك السبل المطروقة. لكن أين أذهب؟ ففي خارجنا هناك مهاوي تقوم مقام الروح.

لقد اضطررت أن أحيا حيوات أخرى. لو لم أفعل ذلك فأي حالات رعب كنت سأعاني منها؟ حالات الوجود الجوانية هي التبرير الوحيد للرعب. وحدهم، الشرقيون أدركوا شيئًا ما من الروح. لقد سبقونا وسيبقوا خالدين فينا. لماذا قمنا نحن الحديثون بإلغاء سياحاتنا الروحية. في حياة واحدة نُكَفِّر عن صيرورة لا منتهية.

كل قديس هو أُمِّي جاهل مقارنة **بأرسطو**. لماذا يتهيّأ لنا أنه من الممكن أن نتعلم أكثر من القديس؟

ليس للفلسفة أجوبة. والقداسة علم صحيح قبالة الفلسفة. لأنها تقدم أجوبة إيجابية ودقيقة عن أسئلة لم يجد الفلاسفة الشجاعة لمعالجتها. أسلوب القداسة هو الألم والهدف هو الله. وبما أنها ليست تطبيقا وليست ملائمة جعلها الناس ضمن مجال **الفانتازي** وأحبوها من بعيد. احتفظوا بالفلسفة قريبا منهم كي يحتقروها. وفي هذه النقطة يثبت الموتى أنهم أذكياء. لأن كل ما هو حيوي في الفلسفة يُختزل فيما تركه الدين عليها من بصمات.

للفلاسفة دم بارد. فليس هناك من حرارة إلا بمقربة من الله. وتفرض طبيعتنا بكل ما تتصف به من سيبيرية وجود القديسين.

ليس هناك، ما هو أسهل من التخفف من الإرث الفلسفي، للفلسفة جذور تتوقف عند لا يقيننا، بينما جذور القداسة تتجاوز في العمق الألم نفسه. الرّيبيّة هي شجاعة الفلسفة الفائقة. وأبعد من ذلك لا تعرف الفلسفة غير العدمية.

لن ينجو أي فيلسوف من الرداءة إلا عبر الرّيبيّة أو التصوف، هذان الشكلان من اليأس في مواجهة المعرفة. التصوف هروب خارج المعرفة، الرّيبيّة معرفة بلا أمل. طريقتان للقول إنّ العالم ليس حلا.

لن تكون آلامنا في المستقبل مجرد عبثية أو شيطانية. قصيدة

واحدة **لبودلير**[18] هي أقرب إلينا من المبالغات المَهيبة للقديسين. بانغماسنا في سُكْر القنوط. كيف يمكننا العثور على منفعة ما في سلم الكمال من خلال التزهد؟ الإنسان الحديث، نقيض القديسين، ليس بسبب هشاشته لكن بسبب هلوسته التراجيدية وعطشه وشهوته لخيبات الأمل الخالدة المتجددة. أن تكون غير قادر على مقاومة ذاتك، من هنا يبدأ نقص التربية في اختيار الأحزان. سيكون أفضل، لو أمكن الله أن يتكشف لنا من خلال الأحاسيس، هكذا يمكننا الإفلات من نظام لا إنساني.

من أجل بلوغ التجلي. عدم قدرة القديسين على مواكبة العصر هو مرض عضال لا دواء له. وإن كان هناك من مازال يهتم بهم، فليس هو إلا ازدراء تجاه الصيرورة.

نحن نندسّ بين الفلاسفة، أولئك الذين أقصتهم المنظومات، فخرجوا للبحث عن السعادة. هكذا تولد الفلسفات الشفقية، مواسية أكثر من الديانات، لأنها تحرّرنا من كل المحظورات. ومنها يصدر ضجر لطيف؛ كما لو أنه مهد اللايقين، الضّروري جدا بعد المخالطة الوخيمة للقديسين.

الرّيبيّة هي الدّهشةُ أمام فراغ المسائل والأشياء. وحدهم

---

(18) . شارل بودلير :1821-1867.شاعر فرنسي أحدث ثورة كبرى في الشعر الفرنسي شكلا ومضمونا إذ أنه واصل نل بدأه الشاعر ألويزيوس برتران في كتابة القصيدة بالنصر متمردا على الشعر الكلاسيكي غير منضبط للأوزان ولم يلتزم بطرق المواضيع المعهودة فجاءت كتاباته متهكمة على النظريات الاجتماعية والسياسية ملغيا تبعية الشعر للأخلاق ولا يراه تابعا سوى للجمال يقول "وأنا صغير كان هناك شعوران متناقضان يسكنان في قلبي :الرعب من الحياة والانتشاء بها.

الأقدمون كانوا ريبيينَ حقيقين.

لقد كان لشكوكهم أسلوبها المتفرد؛ مدموغة بنعومة خريفية وسعادة متحررة من الوهم، كما كل الأشياء الناعمة حين تختفي.

الاستحقاق الوحيد للفلاسفة، هو أنهم يحمرون خجلا من حين لآخر لأنهم بشرٌ. باستثناء أفلاطون ونيتشه: فلم يتوقف خجلهما البتّة. حاول الأول تخليصنا من العالم، أما الثاني فقد عمل على أن يُخرجنا أنفسنا. وكلاهما بإمكانهما أن يصعدا إلى مرتبة القديسين. هكذا، يتم إنقاذ شرف الفلسفة.

لقد خلق الله العالم خوفًا من العزلة، وهذا هو التفسير الوحيد للخلق. وليس من سبب آخر لنا نحن هذه الكائنات سوى تسلية الخالق. نحن المهرجين البائسين، نسينا أننا نحيا دراما لتسلية مُشاهد، هنا على الأرض حيث لا أحد استمع. وإن كان الله قد ابتكر القديسين - كحجج للحوار - فذلك للتخفيف أكثر من ثقل عزلته.

أما فيما يخصني أنا فإن كرامتي تفرض عليَّ أن أعارضه بعزلات أخرى، من بدونها لن أكون سوى مهرجا آخر زائدا.

هناك كائنات لا يمكن الانحناء لها دون فقدان البراءة.

تتطلب سعادتنا أن نكتشف الجحيم بداخلنا. إلى أين أخذنا عرضه الخارجي؟ ألفا سنة من الرعب أوصلونا إما إلى ممر

مسدود أو الانتحار. حين نقرأ وصف يوم الحساب الأخير للقديسة **هيلدغارد**[19] نَمْقُتُ الفراديس وكل ألوان الجحيم ونشكر أنفسنا على انتقالنا الذاتي. إنّهُ علم النفس الشاهد على طيشنا هو ما أنقذنا. فالعالم بالنسبة إلينا، ليس سوى حادث عرضي، خطأ، انزلاق الأنا.

ألا تكون الموسيقى بأي شكل من الأشكال ذات جوهر بشري، والدليل الأفضل على ذلك أنها لا تصور الجحيم. حتى المارشات الجنائزية لم تقدر على ذلك.

الجحيم حدث راهن حالي. وهو ما يعني أننا لا نحتفظ في ذاكرتنا إلا بالفردوس. لو كنا نعرف الجحيم في ماضينا السحيق؛ ألن نتحسر في ذاكرتنا على الجحيم الضائع ؟

حين ننصت لصمت الأشياء من حولنا نشرع وقتها في إدراك معنى العزلة. نفهم إذا السر المكتوم داخل الحجارة واليقظ داخل النبتة، إيقاعَ الطبيعة كلها، المرئي منه والمخفي. لغز العزلة متفرع من حقيقة أنه لا وجود لكائنات فاقدة للحياة. فلكل شيء لغته التي نفك رموزها بواسطة حالات صمت لا مثيل لها.

كلما توقف الزّمنُ وأُنهك الوعي في إدراكه الحسي بالفضاء،

(19) . القديسة هيلدغارد :1098-1179.راهبة متصوفة فيلسوفة ملحنة ألمانية. باشرت الإقامة في الأديرة منذ الثامنة من عمرها. صاحبة رؤى متعددة كتبت نصوصا لاهوتية وأغان طقسية، ذكرها امبرتو إيكو في روايته "اسم الوردة".

نكونُ محجوزين في وضع انتقائي[20].

وبالتالي؛ فالذكريات تمَّحي في لحظة لانهائية خلال هذا التحجير الكوني. نكتفي بمشاهدة العالم، وما كل شيء سوى انتظار عبثي وبلا نهاية، طالما أن الفضاء قد تملكنا. فنصبو إلى تحجيرات أخرى، لأن إغواءات الفضاء توقظ رغائب الفتور المرتعشة.

يقيم الله في فراغات الروح. هو ينظر في طمع إلى الصحاري الداخلية، لأنه، على غرار المرض، يسترخي في النقاط الأقل مقاومة.

لا يمكن لكائن متناغم، متناسق أن يؤمن به. إنهم العجزةُ والمعوزين الذين «أطلقوه»، خصّيصًا لاستغلالِ المنخورين واليائسين.

هناك لحظات، أشعر فيها بكره قاتل لملاقاة «أعوان» كل العالم الآخر، أُخْضِعُهم لعذابات لا طاقة لهم بها. فما هي هذه القناعة التي تقول لي، إنّهُ إذا ما عشت بين القديسين فلن أتزود بخنجر؟

لِمَ لا أعترف بأن ليلة من ليالي سان-بارتليمي [21] صحبة

---

(20) . الإيلية :مدرسة فلسفية أسسها كزينوفانيس تقوم أفكارها على فكرة الوجود لبارمينيدس والتي تنهض على تأكيد وجودية الكائن وعدم صيرورة الأشياء بل ثباتها الدائم من أهم تلامذتها "زينون الإيلي" واضع منهج الجدل.

(21) . سان بارتليمي :مذبحة حدثت يوم 24أوت سنة 1527 ذبحت السلطات الكاثوليكية خلالها أكثر من 50 ألف بروتستاني

الملائكة تسعدني؟ كل هؤلاء المتعصبين للانفصال سأشنقهم من ألسنتهم ثم أدعهم يقعون في مهد من الزنابق. هل من الممكن حقًّا أنّنا لا نملك الحذر البدائي لمحقِ كل قدرة خارقة للطبيعة في البيضة؟

كيف لا يمكن التشنيع بكل ما هو مكروه ومنبوذ في الفردوس، هذا الذي يثير الظمأ المرضِي ويجلبه للظلال والأنوار الآتية من جهات أخرى، من التعازي والإغواءات السامية.

الدموع، معيار الحقيقة في عالم المشاعر. دموع وليست مخاوف. يوجد ترتيب للدموع يتم التعبير عنه من خلال انهيار داخلي. هناك مختصون في عالم الدموع لم يحدث لهم إطلاقا أن بكوا فعلًا.

من لم يلازم الشعراء يجهل معنى اللامسؤولية وتعرية الذهن. وفي كل مرة، نختلط بهم يتأكد في داخلنا الشعور، بأن كل شيء ممكن. إنهم غير مدينين لأحد (إلا لأنفسهم)، لا يذهبون – ولا يريدون الذهاب– إلى أي مكان. وإنها للعنة كبرى أن تفهمهم، لأنهم يُعَلِّمُونَك أنه لا شيء لديك لتخسره.

يَحُدُّ القديسون من نبوغهم الشعري بشكل كارثي وهم يتحدثون إلى أحدهم، والمقصود هنا الله. اللامتعيّن في الشعر، هي تلك القشعريرات المقدسة بلا إله. لو عرف القديسون ما تفقده غنائياتهم حين تتدخل فيها الألوهية، لنبذوا القداسة

وأصبحوا شعراء. لا تعرف القداسة الحرية إلا في الله. لكنَّ الفانين لا يسمحون لغير المجون الشّعري بامتلاكهم.

لو لم تكن الحقيقة مزعجة جدا، لأزاحَ العلم اللهّ جانبًا. غير أن الله، مثله، مثل القديسين، هو فرصة للإفلات من التافهة الغامرة لما هو حقيقي.

ربما ما يشدني في القداسة، هو هذيان السمو الذي تخفيه خلف عذوبتها، الشهوات المُنكَرة المقنعة بالخشوع، العجز المغلف بالرحمة. ذلك أن القديسين عرفوا كيف يستثمرون حالات ضعفهم من خلال علم هو في الحقيقة فوق طبيعي. لهذا فإن جنون العظمة لديهم غامض، غريب ومُرِبك. من أين جاءت إذا شَفَقتنا المخجلة عليهم؟ فمن المستحيل الإيمان بهم. كل ما في الأمر أننا معجبون بأوهامهم. من هنا تتدفق هذه الشفقة...

أليس هناك ما يكفي من الآلام هنا على الأرض؟ يبدو أن جوابا ب لا هو الحكم المتعجل للقديسين، هؤلاء الخبراء في فن جلد الذات. ليس هناك قداسة دون تلذّذ بالألم ودون تلطُّف مشبوه. فالقداسة ضلال لا مثيل له، آفة من السماء.

هذا الامتلاء بما هو زائل. فليس هناك أي عذر للقديسين الذين لم يسفحوا ولا دمعة واحدة كإشارة منهم إلى اعترافهم بالأشياء التالفة. حين يتملّكني شغف متكثّف بالأرض، بكل ما

يولد ويموت، حين يفتنني الهش، فإنني أخفي عن نفسي كرهي لله، وإن احتفظت به فذلك بسبب انعكاس سحيق للجبن.

«سوف تكون هذه الحياة غسقًا ساحرًا، لولا هذا الحدس الليلي بما هو الله». كلما فكرت في هذه العزلات الشرسة حيث ترتسم الأديرة جانبيا في خلفية رمادية، أحاول فهم انقطاعات الورع القديمة، إنّهُ القلقُ في ظل الحجاب. الشغف بالعزلة الذي يولد «الرهبنة المطلقة»، هذا الظمأ المفترس لله، ينمو بتخريب الإطار المحيط. أرى نظرات تنكسر على طول الحيطان، قلوبا لا شيء يغريها، أحزانا محرومة من الموسيقى. يولد اليأس ما بين صحراء وسماء عنيدة تقود نحو تهييج القداسة. «**جدب الوعي**» الذي يشتكي منه القديسون هو المعادل النفسي لصحراء الخارج. كل شئ هو لا شيء - ذلك هو التجلي الأساسي للأديرة. ومن هنا يبدأ التصوف.

هناك أقل من خطوة بين الله واللاشيء، فالله هو التعبير الإيجابي للاشيء.

من لم يحدس ما يعنيه تلطف الهواء في الدير وتصريف الزّمنِ في زنزانة يستطيع دون جدوى فهم نداء العزلة، وطعم اليأس. أفكر بالخصوص في الأديرة الإسبانية حيث أخفى عدة ملوك وعدة قديسين كآبتهم وجنونهم. إنّ مزية إسبانيا ليست فقط في تثقيف الزوائد واللامعقول وإنما أيضا في إثباتها بأن التيه هو

المناخ العادي للإنسان. وأي شيء أكثر طبيعية عند هذا الشعب من حضور التصوف الذي ألغى المسافة بين السماء والأرض؟

علينا أن نفكر في الله ليل نهار حتّى ندفنهُ، حتّى «نتفّهه». ولن نبلغ ذلك إلا عن طريق التوسل إليه دون انقطاع إلى أن يصبح لا مباليًا بنا وسوف ينتهي هذا الإصرار الذي يقيم من خلاله في فضائنا الداخلي سينتهي به إلى الهلاك.

لقد انتصر الشّؤمُ على السّمو في هذه الديانة ذات الغسق الحارق. وتلك هي الجِدَّة في المسيحية.

بعض الديانات الأخرى، تصورت السعادة بخمود بطيء، لقد جعلت المسيحية من الموت بذارا. فأي دواء من الممكن تخيله ضد هذا الموت الوراثي، ضد حياة هذا الموت؟

فكمال **سان فرنسيس داسيز**(22) الخالي من النقصان يجعله غريبا عندي. لم أجد له أي نقطة ضعف تسمح لي بالاقتراب منه وفهمه. من الصعب البحث عن أعذار لكماله. رغم اعتقادي أنني وجدت له عذرا. حين أصبح في آخر حياته شبه أعمى، وأرجع الأطباء المرض إلى سبب وحيد: المبالغة في الدموع.

القداسة هي تجاوز حالة الكائن. الرغبة في أن يكون المرء في الله لا يتوافق مع الوجود المجاور أو السفلي، وهو ما يحدد

(22) . سان فرنسيس داسيز :1181-1226: قديس إيطالي اشتهر بين العامة لاستعماله اللهجة العامية في وعظه أسَّس أحكام القديس فرانسيسكو علم الناس المحبة والاحترام فيما بينهم و كان يدعو لاحترام الحيوانات والنباتات ويعتبرها إخوة له.

سقطتنا.

... وإذا لم أستطع أن أحيا، هل يمكن على الأقل أن أموت في الله أو المزج بين الاثنين: أُقبرني حيا فيه.

حين يتآكل في داخلنا مقطع موسيقي، فالفراغ الذي يحتل مكانه يكون بلا حدود. لا شيء بإمكانه أن يفصح لنا عن الألوهية عند حدود الحماس الصوتي إلا التعدد الداخلي - من خلال الذاكرة - تتابع **سبستيان باخ**. حين يعود لنا في الذاكرة مقطع وحُمَّاه التصاعدية، ينتهي بنا الأمر للتدافع مباشرة في اتجاه السماوي. الموسيقى هي الانبثاق النهائي للكون، كما هو الشأن بالنسبة إلى الله الذي هو الانبثاق النهائي للموسيقى.

أنا مثل بحر يسحب مياهه ليترك المكان لله. تفترض الإمبريالية الإلهية انحسار الإنسان.

مرهقًا بعزلة المادة، بكى المحيطات والبحار.

ومن هنا يأتي النداء الغاضب للامتدادات البحرية وغواية الغطس النهائي، كالتفاتة إليه...

فذلك الذي إحساسه على حواف السماء والبحار لم يرعَ الدموع، لم يطارد النواحي المضطربة للألوهية، حيث العزلة كما هي تستدعي عزلة أخرى أكبر بكثير.

من دون الله كل شيء هو ليل والنور يصبح بلا جدوى معه.

أحقر المسيحي لأنه قادر على حب أشباهه عن كثب.

لإعادة اكتشاف الإنسان تلزمني الصحراء.

نظرًا لعدم وجود حلّ لأي إشكال ولا مخرج من أي مأزق، فإننا نقتصر على الذهاب في دوائر. الأفكار التي يغذيها الألم تتخذ هيئة معضلات، إنها عتمة الذهن الناصعة، هكذا تلقي جملة التعقيدات غيرِ القابلة للحلّ بظلٍّ مرتجف على الأشياء. كذلك جدّية الشفق المزمنة...

كل أفول هنا ليدعمني.

يتأرجح التصوف بين شغف الانخطاف ورعب الفراغ. ولا يمكن معرفة أحدهما إلاّ بمعرفة الآخر. فكلاهما يفترضان عزيمةً شاقة مشقّة «الصفحة البيضاء»، مكابدةً من أجل النقاء النفسي... فما إن تنضج الروح من أجل فراغ دائم وخصب، حتى ترتقي إلى درجة الفناء الكلي. يمتدّ الوعي إلى ما وراء الحدود الكونية. وعي متحرر من كل الصور هو الشرط الضروري لبلوغ الانخطاف وتجربة الفراغ. فلا نرى أي شيء خارج اللاشيء، وهذا اللاشيء هو الكلّ. إن الانخطاف هو حضور كلّي أعمى، إنه فراغ ممتلئ. رجفة تتخلل العدم، جموح في الغياب المطلق.

الفراغ شرط الانخطاف، وبالمثل فالانخطاف شرط الفراغ.

مذاق التدمير الذاتي يكمن في هوس الكمال، حيث وسواس الدّير والماخور. «خلايا» ونساء من كلا الجهتين. ينمو القرف من الحياة كما في ظل القديسين وفي ظل المومسات.

«شهوة الله» التي يتحدّث عنها سان جان ديلاكروا هي نفي في المقام الأول وفي الأخير إثبات وجود. وبالنسبة إلى أولئك المخذولين الذين كفّوا عن تحمّل العالم وظلماته، واستعفوا من هذه "الشهوة" وحضورها الحادّ، فإنهم يثبتون مدى انفصالنا عن هذا العالم. فكلما فكرنا في الله غريزيًا، إلاّ وسلّمنا بالعجز والنقصان. إن العدم الحيوي هو نقطة ارتكاز مثالية للألوهية.

التصوف اقتحام للمطلق في التاريخ. هو، كما الموسيقى، هالة كل ثقافة، تبريرها النهائي.

كل العدميين هم في نزاع مع الله. دليل آخر على قرابته باللاشيء. وقد دُسْتَ كل شيء بقدميك، لم يبق لك من شيء لتدميره سوى هذا الحذر الأخير من العدم.

يتحدث الفانون عن الله ليخفوا جنونهم. ما دمتم تعتنون به فلديكم أعذاركم عن ضلالكم. الله؟ خبلٌ أكيد، ورسمي.

كلما اتخذ سأمنا من العالم شكلا دينيا، كان اللهُ البحرَ الذي نتخلّى له عن أنفسنا حتى ننساها. إنَّ الغرق في الهاوية الإلهية ينقذنا من غواية أن نكون كما نحن.

نكتشفه أحيانا باعتباره منطقة مضيئة عند حدود الانحدار الداخلي، وهو ما يواسينا قليلا، فمن خلال إيجاده فينا يكون تحت تصرفنا على نحو ما. إنّ لدينا حقّا عليه، بما أن التصديق الذي منحناه إياه لا يتجاوز أبعاد الوهم.

الله مثل بحر والله مثل منطقة مضيئة، يتداولان على تجربة الألوهية. وفي الحالتين، الهدف الوحيد هو النسيان، النسيان الذي لا دواء له.

حين تصغون لباخ ترون الله يتبرعم. مؤلفه مُوَلِّد للألوهية.

عليه أن يوجد، بعد موشح ديني، نشيد جماعي أو «شغف». وإلا فأن كل منجزات الكانتور[23] هي مجرد وهم ممزِّق. والحال أن العديد من علماء اللاهوت والفلسفة أضاعوا أيامًا وليال للبحث عن دليل لوجود الله، ناسين الدليل الوحيد...

فكرة الله هي العبادة الأخطر على الإطلاق التي لم يتم تصورها أبدا. ومن خلالها إما تنجو الحياة أو تضيع.

«المطلق» حضور منحل في الدم.

ومن المهم الانتهاء مرة واحدة وإلى الأبد من القديسين لأنهم يوصوننا بالله كما توصي النحلة شوكتها.

---

(23) . كانتور: هو المشرف على إدارة وتدريب أعضاء الكورس في فرقة موسيقية دينية.

لماذا، نادرًا ما نفكر في الكلبيين[24]؟ لأنهم عرفوا كل شيء واستخلصوا النتائج من هذا التكتم الفائق.

ودونما أدنى شك، من المستحسن نسيانهم. لأن عدم اهتمامهم بالوهم جعل منهم أذهانًا جشعة التعقيد.

لا أفهم أن واحدًا مثل أفلوطين[25] أو المعلم إكهارت[26] بإمكانهما دفع الوقت بهذا الشكل خاصة أنهما لن يشعرا بأي ندم عن ذلك. ليست القطيعة مع الروابط الزمنية هي التي تعذبهما وإنما هي الخشية من عدم النجاح في القطع مع هذه الأزمة مرة واحدة وإلى الأبد.

...استحالة كشف ذبذبة الجنائزي في الأبدي

الحياة في الله هي موت الكائن. ليست العزلة معه ولكن العزلة فيه. هي «**صوليداد أون ديوس**» لسان جان دو لاكروا. فعنده الجمع بين العزلة البشرية والصحراء اللامتناهية لله، هي لذة مبهمة، مبشرة بتعريفهما الكامل. ما الذي سيحدث التصوف في مغامرته الربانية، ما الذي يفعله في الله؟ ذلك ما

(24) . الكلبيين:أصحاب الفلسفة الطلبية التي تنظر باحتقار إلى الرغبات البشرية. تتجاهل المجتمع والعائلة ومن أتباعها التشاؤوميون والرواقيون. تغير مفهوم الكلبية في القرن التاسع عشر ليعني سلبية شديدة وارتياب عام وغياب الثقة في السلطة والمجتمع ومنظماته.

(25) . أفلوطين:205-270م .الشيخ اليوناني تلميذ إفلاطون يتفق مع المسيحية الآرثودكسية في فكرهم عن الخلقة الكل مت لا شيء ويرى أن حقيقة الإنسان تكمن في روحه عارض الأفكار الغنوصية بشدة.

(26) . المعلم إيكهارت :1260-1328.باطني من علماء اللاهوت من أهم رموز الإصلاح في المسيحية يرى آن الله هو الأب والأم ونحن الأبناء رفض فكرة الشيطان في الإنجيل مما أغضب الكهنة المسيحيين.

نجهله طالما نعرف أنه هو نفسه غير قادر على أن يقوله لنا.

لو كان هنالك معبر مباشر للابتهاج في الله. من دونِ تلك التجارب التي تسبق الانخطاف - سيكون الاتجاه الفوق طبيعي في متناول الجميع. غير أن الخطأ في معرفة المعبر قد يجعلنا محكومين بتسلق سلم لن نبلغ درجته الأخيرة.

إلى جانب العزلة في الله. توجد عزلة أخرى والتي هي في عمقها التوحد في الله: شعور المرء أنه وحده ومهمل وسط مشهد مقفر، اليقين أننا لسنا في داخلنا ونحن داخل الألوهية.

يعادل قدوم الإنسان رجة مازالت أصداؤها تغذي الكابوس الإلهي. فالإنسان يضيف مفارقة للطبيعة حين يستوي في المنتصف بينها وبين الألوهية. لقد تغيرت الصلات بين الأرض والسماء منذ هجمة الوعي. وظهر الله في ضوئه المحدود: وزيادة على ذلك هو لاشيء.

لا ينشغل الشعراء بالقديسين إلا بمقدار ما يكون هؤلاء مهمين أو في الحالات التي يشتمون فيها الحاجة للمواساة.

تصبح الذاكرة نشطة حين تكف عن جعل الزّمنِ إطارًا أو بعدا لها... أصبحت تجربة الأبدية حدثًا راهنًا، فهي تحدث الآن أو في أي مكان، بدون مرجعية في حياتنا الماضية. وكل ما في الأمر، أن أقوم بقفزة خارج الزّمنِ؛ ومن غير المجدي أن أتذكر أي شيء. لكن حين يتعلق بماضينا الأساسي، بالأيدي التي تسبق

الزمن - فوحدها الذكريات ما قبل الزمنية هي التي تجعل من هذا الماضي مفتوحا.

هناك ذاكرة أخرى، غافية وعميقة ونادرا ما نوقظها. تعود إلى النبضات الزّمن الأولى، تتراجع نحو الأصول، أي في اتجاه الحد الأعلى للذكريات. هي الذاكرة الواضحة.

كل ذكرى هي عارض مرضي. الحياة بوصفها حالة خالصة، باعتبارها ظاهرة غير متغيّرة، هي حالٌ مطلقةٌ. الذاكرة إنكار للغريزة وتضخيمها مرض عضال.

لقد أعفت البشرية نفسها من الله منذ جردته من صفاته كإنسان. لقد اختلسته من رؤيتنا المباشرة وهي تحاول توسيع مجال تأثير القادر الجبار. لمن سوف نتوجه إذا، وقد توقف على أن يكون إنسانًا يستطيع أن يفهمنا ويجيبنا؟ الله في كل مكان وفي لا مكان بما أنه نجح في أن يكون واسعًا. أما اليوم فهو كل شيء إضافة إلى أنه الغائب الكوني.

لقد بالغنا في تحريفه حين منحناه أحجاما أكبر بكثير. ولماذا عوض أن نتركه كما كان في تواضعه الأصلي، قمنا بتشويهه؟ مدفوعًا من خلال كبرياء لا حدود لها، منحناه الكثير من الصفات. بينما هو اليوم أقل أهمية مما كان. لقد تمت معاقبتنا لأننا عظمناه كثيرًا! أما الذي أضاعه ،فلن يعثر عليه أبدًا، ربما توجب البحث عنه بأشكال أخرى من الوهم... بالذهاب لنجدته، لم

ننجح إلا في تسليمه إلى الغيرة البشرية. هكذا، ولكي نصلح خطأ بسيطا، قضينا على الخطأ الوحيد الدقيق.

اصطحاب فكرة الله نحو حتفها ذلك هو القَدَر التاريخي للإنسان. وقد استنفدنا كل إمكانيات التجربة الربانية، جربنا الله في كل أشكاله، سنبلغ الآن حتما الإشباع والقرف، بعد ذلك سوف نتنفس بكل حرية. غير أن هناك في هذا الصراع ضد إله يجد ملاذه الأخير بين طيات روحنا؛ انزعاج لا يمكن تعريفه، انزعاج ولَّدَه خوفُنا من فقدان هذا الإله. كيف سنتعلَّل بآخر بقاياه، كيف يمكن الاستمتاع في هدوء بالحرية المتتالية جراء القضاء عليه؟

الديانة، ابتسامة تُحلِّق عموما في سماء اللامعنى، مثل عطر نهائي على إحدى موجات العدم. لذلك ولقلة الحجج ترتد الديانة إلى الدموع. فلم يعد هناك غيرها لتضمن القليل من توازن الكون ووجود الله. حالما تجف الدموع، سوف تختفي الرغبة في الله هي أيضا.مكتبة سُر مَن قرأ

وهناك لحظات نريد فيها أن نلقي الأسلحة ونحفر قبرًا بجانب قبر الله. طبعًا، مذهولًا، يحيا مجددًا يأس الزهد ليكتشف في نهاية حياته لا جدوى الزّهد.

أليس غريبًا، أن ترهقنا فكرة الله إلى هذا الحد! فهي مساوية لإجهاد الوعي، مساوية لحُمَّى مخفية ومرهقة، لمبدأ مُدمِّر. وأننا

لنستغرب أن بعض القديسين وقد تقدم بهم العمر كثيرًا وهم بهذا الوسواس. يصل إلى درجة التوقف عن النوم نهائيا للتفكير فيه!

وفي الأصل، ليس هناك إلا هو وأنا. لكن صمته يلغينا نحن الاثنين. من الممكن أنه لا شيء قد وُجد أصلًا.

يمكنني أن أموت مرتاح الضمير لأنني لا انتظر منه أي شيء. فلقاؤنا ببعض قد عزلنا عن بعض. كل وجود هو دليل إضافي على عَدَم الله.

كم من واحد يعرف ما معنى السقوط من هاوية الألوهية إلى هاوية أخرى أعمق بكثير؟ ليس هناك أي موسيقى إلى حد الآن أنشدت القطيعة مع الله....

يحدث أحيانا أن نتحسر لعدم معرفتنا معنى الخشية الدينية. لو فقط استطعنا إعادة إحياء تلك القشعريرة القديمة أمام الغريب، الهلع أمام ما هو مطلسم.

الانحناء؛ الحكمة يعني التناغم مع الإيقاع العام، القوى الكونية، يعني معرفة كل شيء والتلاؤم مع العالم، لا أكثر ولا أقل. كل الحكماء مجتمعون لا يساوون لعنة من لعنات **الملك لير**[27] أو هذيان إيفان كارامازوف[28]. والرواية بوصفها عملي

(27) . الملك لير:من سلالة بروتوس الطروادي حين قربت وفاته أراد أن يبتسم مملكته برن بناته الثلاث على أن تبرز كل واحدة منهن درجة حبه له وهو ما فعلته البنتان الكبيرتان كرديليا أصغرهن فلم تتملق أباها بابراز حبها له فما كان منه إلا أن غضب وقسم مملكته على ابنتيه محتفظا

ونظري الحكمة وكل ما يمكن لنا أن تتخيله من مسطح وملائم.
هل هناك إثم للذهن أخطر من الخضوع والانقياد؟

اللاتناغم مع الأشياء هو علامة جلسة للحيوية الذهنية وسيكون هذا أشد وضوحا وبداهة حين يكون هذا اللاتناغم مع الله. فالتصالح معه يعني عدم الحياة مع الذات، لكن تحيا من خلاله. ثم نضيع نهائيا، بتمثلنا له؛وبإلقائنا له نفقد أي سبب للحياة.

وهو ملاذي الوحيد؛ إن كنت مرهقًا من العيش؛ لكن كلما أنا مضطرب متألم فلن أتركه في سلام.

قَدَره أن ينتهي غير مفهوم (مثل الكائنات تمامًا).

ورغم ذلك هناك من يفهمه. وإلا بماذا نصف اليقين المزعج الذي يمسك بنا أحيانا، بأن لا ننمو فيه؟ و هذه الغثيانات، هذا السهاد الطويل، حين يتهيّأ لنا أننا أرهقناه بكثرة التفكير فيه والتذمر إليه...

كل واحد منا قد اكتشفه متأخرا وغيابه يتركه في ذهنه فراغًا حادًا!... وليس بإمكاننا أن نخرج ظافرين من صراعاتنا معه،

بالجزء الاخير له غير أن زوجي ابنتيه استوليا على كامل المملكة مما اضطر لير للهرب وهنا يستعيد سيوران مشهدا من مسرحية شكسبير بنفس الاسم حيث تتعالى لعنات الملك لير في قمة هيجانه وكفره بكل شيء.

(28) . إيفان كارامازوف: الأخ الأوسط ضمن الأخوة كارامازوف في منتصف الثلاثينات من عمره كاتب وشاعر يعيش نفسية مضطربة بسبب معاناته مع الله كان كثير التساؤل في ماهية الله وكثير الحلم بالشيطان هو رمز المثقف القلق وقد كان كثير التداعي في تمتماته لذلك استدعاه سيوران هنا.

إلا بالتفكير فيه إلى أبعد حد، بلا رحمة والاستيلاء على صحاريه. وأن رضينا بالبقاء في منتصف الطريق. فلن يكون غير خيبة أخرى.

كلما شَغَلَنا، أضعنا شيئا من وعينا. لا أحد يشغله أمر الله في الفردوس. تلك السقطة، تلك السقطة وحدها أولدت هذا التطلع الغريب. دونما خطأ ،نقطة وهي الوجود الإلهي. فمن النادر أن نجد الله في وعي بجهل ارتعابات الإثم.

إذا ما كان الاتصال بالله يلغي براءتنا، ففي انشغالنا به تدخل في شؤون.«ذاك الذي سيرى الله يموت» الامتدادات الجهنمية للألوهية مُربكة مثل خطيئة.

علم اللاهوت هو إنكار الله. تلك الفكرة السخيفة القائمة على البحث عن حجج لإثبات وجود الله! كل هذه الدراسات لا تساوي مجرد لحظة تعجب عند **سانت تيريز**. منذ وُجد علم اللاهوت لم يظفر أي وعي بأي يقين إضافي. لأن علم اللاهوت ليس سوى النسخة الملحدة للعقيدة. آخر خربشة صوفية هي أقرب لله من مجموع نظريات علم اللاهوت. كل ما هو مؤسساتي ونظري كَفَّ عن كونه حي. لقد أمَّن علم اللاهوت احتضارًا مستمرًا لله. وحده التصوف ينعشه من حين لآخر.

يحدث لي أحيانًا أن أشعر بشكل من أشكال الاستغراب لفكرة وجود «مجانين الله»، هؤلاء الذين ضحوا بكل شيء من

أجل الله، بدءا بعقولهم.

وعادة ما يتراءى لي أن استشف كيف يمكن تدمير الذات من أجله بحماس مرضي، ضمن انحلال كلي للروح والجسد. من هنا نفهم التطلع اللامادي للموت.

هناك شيء متعفن في فكرة الله!

يقوم الوسواس الرباني بتفريغ الحب الأرضي. فمن المستحيل حب الله وحب امرأة بشغف في نفس الوقت. سوف يخلق مزج بين هذين الإيروتيكيتين العدوتين اللدودتين اضطرابًا لا نهائيًا. بإمكان امرأة أن تنقذنا من الله، كما أنه بإمكان الله أن ينقذنا من كل النساء.

كل ثورة هي موجهة ضد الخلق. فأقل حركة بعدم الخضوع تُهدد النظام العام المقبول من عبيد الخالق. فلا يمكن أن نكون مع الله وفي نفس الوقت ضد منجزاته؛ ولكن من الممكن حبًا فيه أن ننسى الخلق أو على الأقل نزدريه.

لم يعد من الممكن التمرد باسم الله، إلا ضد الخطيئة.

فالخطيئة عند الرجعي الأسمى هي الفوضى، هذا الاحتجاج ضد النظام الأولي.

كل متمرد هو ملحد. عدم الانخراط في معادلة بمتناهى الصغر للخلق يساوي تفتيت السماوي اللامتناهي. فالفوضوية

غير مدرجة في مخطط الخلق. نعرف أن الحيوانات تسترخي في الفردوس، إلى أن يأتي يوم، يرفض بعضها هذه الوضعية وترفض السعادة. و كل التاريخ البشري انبنى على هذا التمرد البدائي.

ذات يوم؛ سينتهي العالم، هذا الكوخ العجوز، بالانهيار. ولا أحد يعرف بأي شكل سيكون هذا الانهيار، ناهيك أنه لا أهمية لذلك. أنه منذ اللحظة التي فقد فيها كل شيء ماهيته، والحياة ما هي إلا شقلبة في الفراغ ، فلا البداية ولا النهاية تثبتان أي شيء.

إذا ما سعيت لمعرفة ما الذي يقربني من الله، أحس بموجة من الرأفة تصَّاعد نحو تلك الأعالي المهملة. نرغب في فعل شيء ما لهذا المتوحد الكبير.

أن نرأف به : العزلة النهائية للخلق.

يبدو أنه ليس من سبب آخر لوجود الإنسان غير التفكير في الله. سوف ينجو؛ لو استطاع أن يتجاهله أو يحبه. لكن قُضي عليك ،ما أن تشرع بالحفر فيه؟ غير أنه ليس للإنسان ما يفعله سوى أن يحفر ليضايقه فليس غريبا أن لا يبقى منه شيء في وقت قليل. يقاوم الله جيدا غير أنه في مجابهة الفكرة يفقد ماهيته. والحال أن بعض الفلاسفة منحوه فكرة لاحدود لها... كهنوت عجوز مخلوع، هذا ما تبقى من الألوهية، خرقة يترهبون بها ليس إلا.

التاريخ البشري هو بالأساس دراما ألوهية. وليس لأن الله فقط يحشر أنفه في هذا التاريخ، بل لأنه يتحمل بالتوازي وبحدة متزايدة بشكل لا نهائي، كيفية تَمَشِّي الخلق وتخريب يُعرِّف الحياة. شر مشترك، وباعتبار موقعه فسوف يفنيه قبلنا. فتضامننا في اللعنة يفسر لماذا كل تهكم في شأنه يعود بالأساس علينا ويصبح تهكما ذاتيا. ومن ذا الذي هو أكثر منا فناء؛ تألم لِمَا لم يكن عليه وما كان يجب أن يكونه.

فالله الذي يبدو لنا سهل القراءة بشكل مريح، إذ يكفي الانحناء بحذر شديد على أدق حركاتنا الداخلية.

كيف يمكن تفسير الانطباعية العائلية وغياب العجيب الذي يتأسس في تلك اللحظات النادرة عندما يصبح الرباني ممكنا خارج أي تجربة انتشائية.

أي نسخة عن الله هي متعلقة بسيرة ذاتية ما. وليست فقط صادرة عنا، بل هي تأويلنا الخاص.

يتعلق الأمر برؤية استبطانية مزدوجة، تكشف لنا حياة الروح مثل أنا ومثل الله. فنحن ننعكس فيه وهو ينعكس فينا.

هل بإمكانه تعويضي كل ما أفتقده؟ ألن ينوء من حمل هذا العبء.

لا أدركني إلا من خلال الصورة التي أشكلها عنه.

وبهذا الشكل فقط يمكن لمعرفة الذات أن يكون لها معنى وهدفا. الذي لا يفكر في الله يصبح غريبًا أمام نفسه. الاتجاه الوحيد لمعرفة الذات يمر عبر الله، والتاريخ الشمولي ليس وصفًا للأشكال التي التقطها.

وعموما يجب على التأمل الموسيقي أن يكون نموذجًا للتفكير. مَن الفيلسوف الذي استطاع متابعة مقطع موسيقي إلى درجة إنهاكه، إلى أقصى درجة؟ ليس هناك من فكرة مستوعِبة إلا في الموسيقى. حتى بعد الفلاسفة الأشد عمقا، نشعر بالحاجة للبدء من الصفر مجددا. وحدها الموسيقى تمنحنا إجابات محددة.

يبدو أن التفكير اليوم غير قادر على الوصول بأي حافز ما نحو نهايته وموضوع الله يتحمل تغييرات متعددة. لقد أرهبه التفكير والشعر، لكنهما لم يدركا أي شيء عن الألغاز التي تحيط به. المغامرة مهلوسة، للذاتية أولًا، وللجماعة ثانيًا.

البطل في الناس هو ذاك الذي لا يفكر كثيرًا في الموت. ورغم أنه ولا أحد يصبو إليه، بشكل واع بَيْد أنه حقيقي أكثر من أي كائن.

تحدد هذه المفارقة شرطه :اشتهاء الموت دونها الاحساس به.

الذهن في حد ذاته هو تخل. فأي معنى آخر سيكون له بِتَخَلٍّ ثان عن طريق البطولة؟ أليس دالًا أننا نجد هذه الوفرة من الأبطال عند فجر كل الحضارات؟ متجاهلين تعذيب الذهن،

كيف استطاع الناس إشباع شهواتهم نحو التخلي بدون مُحوِّلها البطولي؟

لا شيء يربط الرباني بالبطولي. فليس لله أي صفة من صفات البطل. الجبن اللا طبيعي للمسيح....

ما الذي سوف أفعله بدون المشهد الهولندي، بدون **صالومون**(29) **وجاكوب رويسدال**(30) **وآرفان دير ناير**(31)؟ فكل لوحة من لوحات هؤلاء توقظ في داخلك أحلامًا متعلقة بالغيوم، بصيغة غسقية وبنسائم بحرية، بامتدادات متموجة جُعلت لاحتضان المنعزل. وتعليقات شتى بخصوص المالاناخوليا.

الأشجار منعزلة او ملتصقة الواحدة بالأخرى تحت سماء متسعة جدا والحيوانات لا ترعى العشب وإنما اللامنتهى؛ والناس لا يذهبون إلى أي مكان، ينتظرون واقفين في طيات الظلال - الكل يشارك في عالم حيث النور هو نفسه يضخم اللغز. وما يكشفه لنا **فرمير فان ديلفت**(32)، معلم الحميمية،

---

(29) . صولومون فان رويسدال: 1602-1670.رسام هولندي اهتم برسم مشاهد من الطبيعة الهولندية تميزت رسوماته بالحرارة وقوة الضوء. من لوحاته "سوق السمك". "طبيعة ميتة في الدندون".

(30) . جاكوب رويسدال:1628-1682.تأثر بعمه صولومون فتخصص في المشاهد الطبيعية التي تميزت بالسوداوية والكثافة الدرامية. "بخطوط منفلتة وفرشاة قاسية وآفاق رمادية ترك لنا رويسدال بورتريه لهولندا الحميمية" هكذا يقول عنه أحد النقاد من لوحاته" المقبرة اليهودية".

(31) . آر فان دير ناير:1603-1677.رسام هولندي تخصص في رسم مشاهد شتائية وعواصف ثلجية من لوحاته "نهر في الشتاء".

(32) . فيرمر فإن دلفت:1632-1675.رسام هولندي من أهم فناني القرن السابع عشر في أوروبا تخصص في رسم المشاهد الداخلية يستخدم ظلالا آحادية من خلال النظرة الباطنية للاشياء.

ولحظات الصمت السرية في بورتريهاته، يجعل من الصمت جليا، يمكن جسه بدون اللجوء إلى صفو-العتمة في أبعاد متسعة، أما جاكوب رويسدال وهو الشاعر أكثر منه رسامًا، يعكسه في الفضاء دونما حدود في صفاء-عتمة هائل. ننصت إلى صمت الشفق - ذلك هو السحر المقفر للمشهد الهولندي، مع زيادة بعض اهتزازات بدونها سيفقد المالناخوليا تاك الضربة الشعرية.

روسيا وإسبانيا :أمتان حبلتا بالله. بلدان أخرى تكتفي بمعرفته، لكن لم تحمله داخلها.

كل شعب ما، لديه مهمة الإفصاح عن صفة من صفات الله على الأقل، وأن يجعلنا نكتشف وجها من وجوهه. وهو ما لايمكن أن يحدث إلا إذا حققت الصيرورة جزءًا من الصفات السرية للألوهية.

وتشير بعض آلاف السنين من التاريخ على أزمة جادة في قدرة وسلطة الله. ولقد تجاوزت الشعوب مسألة معرفته، دون أن يرتبوا في الألم الذي يحدثه لهم ذلك.

لو تشبهت كل البلدان بروسيا وإسبانيا، لأرهقوا الله من زمن. فالإلحاد الروسي والإسباني مستوحي من العلي الأعلى. وبواسطة الإلحاد يدافع عن نفسه ضد العقيدة التي تفنيه. يستقبل بذراعين مفتوحتين أبناءه، الملحدين...

هل هناك من اقترب منه أكثر من الغريكو[33] عن طريق الخطوط والألوان؟ وهل كان الله نفسه مرة محاصرًا بالأشكال بهذا الإصرار العنيف؟ بعيدا عن أن يكون ناتجًا عن قصور بصري فالبيضوي عند الغريكو هو الشكل الذي يتخذه الوجه البشري وهو ينسلُّ نحو الأعالي. إسبانيا، بالنسبة لنا نحن، هي شعلة، وهو حريق بالنسبة لله. لقد قرَّبت النار الصحاري من الأرض ومن القبة الزرقاء. روسيا مع سيبيريا كلها - تشتعل في نفس الوقت مثل إسبانيا ومثل السماء نفسها.

الروسي أو الإسباني الأكثر شكوكية هو الأسد شغفًا بالله أكثر من أي ميتافيزيقي ألماني. كل صفاء- عتمة الفن التشكيلي الهولندي لا يساوي في كثافته الدرامية للظل المحتدم الحار للغريكو أو **زورباران**[34].

صفاء-عتمة الهولندي بكل ما فيه من عجيب، هو غريب عن التسامي. فالماليناخوليا مُقَاومة للمطلق.

بين إسبانيا وهولندا، هناك مسافة لا يمكن قياسها بين المالينخوليا واليأس. يدعونا **رمبراندت** نفسه أن تستريح في الظل و صفاء-عتمة كامل والذي ما هو إلا انتظار للشيخوخة .

(33) . إل غريكو:1541-1614.رسام ديني ونقاش ومصمم اسباني من أبرز فناني القرن السادس عشر أثار أسلوبه في الرسم الكثير من الجدل لما فيه من تصوف وواقعية صار مصدر إلهام للكثير من الشعراء من لوحاته "انتقال السيدة العذراء".

(34) فرانسيسكو زورباران:1598-1664.رسام إسباني اشتهر بلوحاته التي تصور الرهبان والراهبات وهم يتعبون تميز بالعمق الصوفي من أهم لوحاته "صلب المسيح".

فهل من الممكن أن نعثر عن فنان تأملي، انعكاسي وفي نفس الوقت هادىء مرتاح مثله.

هو الوحيد من بين الهولنديين الذي فهم الله. (ألهذا السبب نادرًا ما رسم مشاهد طبيعية) لكن، أبعد ما تكون حضورًا يعيد تشكيل الأشياء إلى حد تحريفها (الغريكو)، يصَّاعد إله رمبردانت[35] من سر الظلال.

هل يوجد معيار آخر للفن غير التقرب من السماء؟

لأن الاحتدام والحدَّة المطلوبيْن لا يمكن أن يتضحا إلا من خلال علاقة بشغف سام. ورغم ذلك، فهذا المعيار يتركنا بلا عزاء، بما أن روسيا وإسبانيا يثبتان لنا، أننا لم نقترب كثيرًا من الله لنكون ملحدين...

الزمن مواساة. لكن الوعي يأتي في آخر لحظة.

ومن الصعب العثور على فن للشفاء فعَّال. كل ما يُنكر الزمنَ هو مرض. والذي هو أكثر سلامة و أكثر نقاوة في الحياة ما هو إلا تأليه للزائل. الخلود عفن لا يكلُّ والله جثة يسترخي فوقها الانسان.

(35) . رمبراندت:1606-1669.رسام هولندي اشتهر كأحد أساتذة الرسم الغربي رسم مشاهد من التوراة وبسبب تعاطفه مع الحالة الإنسانية عُرف بأنه "واحد من أنبياء الحضارة الغربية العظماء " قال عنه فان كوخ "يمضي رمبراندت في الغموض إلى درجة أنه يقول أشياء لا توجد في أي لغة".

الأرغن نشكونية[36]. من هنا أصداؤها الميتافيزيقية الغائبه عن الناي وعن التشيلو، إلا في التعبير الغنائي والاهتزازات الدقيقة في براعتها، يفسر المطلق نفسه بنفسه في الأرغن.

من هنا جاء الانطباع أنه الآلة الموسيقية الأقل بشرية من دون بقية الآلات ويتم العزف عليها دائما وحدها! عكس الناي والتشيلو اللتان تسمحان بظهور حالات ضعف الانسان، لكن متغيرة، كما لو أنه تحسر ما فوق أرضي.

وأنت تدخل، صدفة، لكنيسة، تلقي من حولك نظرة لا مبالاة، حين يفاجئك بغتة تساوق الأرغن، أو تسمع تشيلو تأملي ذات مساء في غرفة ما مُعْتمة بهالات من الدخان - أو أيضا تصلك النوتات المتواصلة في تقطع لناي ذات ظهيرة مقفرة ومتسعة - هل يمكن تخيل عزلة روحية ملاطفة أكثر من هذه؟

تتوهج الأشكال والألوان عند الغريكو عموديا. أما عند فان كوخ فالأشياء هي أيضا شعلات والألوان مشتعلة. لكن أفقيًا ، تنتشر في الفضاء. **فان كوخ هو غريكو بلا سماء، غريكو بلا** موضع آخر.

يفسر مركز الثقل في الفن البنية الشكلية ومختلف الأساليب، يعني المناخ الداخلي. فالعالم بالنسبة للغريكو يتجه نحو الله، غير أنه عند فان كوخ يتفتح في الحريق...

(36) . كوسموغوني: مجموعة نظريات تبحث في نشأة الكون وكيفية تنظيمه.

يُمسك بك القرف أمام مشهد الصيرورة البشرية ويدفع بك للتخلي عن«الأحاسيس»، والتفكك. فهي منبع هذه الانخراطات المريبة، وغباوة «النعم» للعالم. ساخطًا، لدينا «معابر» قداسة علمانية يتم خلالها إعداد شاهدة القبر.

من واجب كل انسان، منعزل أن يكون أكثر عزلة.

حزن أصم، عند ظل الأديرة يُولِد في الروح رهابنة هذا الفراغ الذي تسميه القرون الوسطى تَضَجُّر ولامبلاة. هذا القرف الذي مصدره صحراء القلب وتحجُّر العالم هو الكآبة الدينية. ليس بسبب القرف من الله ولكنه تضايق داخل الله.كل أيام الأحد بعد الظهيرة الغارقة في صمت مثقل على الأديرة ذلك هو؛ التَضَجُّر.

يبتكر الانتشاء لنفسه في مرحلة حماسته الأولى مشهدًا؛ يشوهه التَضَجُّر، الذي يجعل من الطبيعة شاحبة جدًا، والوجود تافه، ويُخلِّف ضجرا مسمومًا ووحدها ، حالتنا بصفتنا فانين المحرومة من النعيم تساعدنا على فهمه. التَضَجُّر الحديث ليس العزلة الديرية - رغم أن كل واحد منا يحملها في داخله- لكنه الفراغ والهلع في مواجهة إله معتوه ومهجور.

هل حدث، أن وقفت أمام المرآة ونظرت إلى نفسك حين لا شيء يقف بينك وبين الموت؟ هل سألت عينيك؟ هل فهمت وقتها أنك لا تستطيع أن تموت؟ الحدقتان المتسعتان بسبب

الرعب المهزوم أشد امتناعًا من الأهرام. ويولد يقين من جمودهما، يقين غريب ومنشط في لغزه الجوهري: لن تستطيع أن تموت. أنه صمت العينين،، نظرتنا في لقائها بنفسها، هدوء مصري للحلم أمام رعب الموت. كلما استبد بك الرعب، انظر لنفسك في المرآة، أسأل عينيك وستفهم لماذا لا يمكنك أن تموت، لماذا لن تموت أبدا. عيناك تعرف كل شيء. لأن أعيننا المُشربة بالعدم تضمن لنا أن لن يحدث لنا أي شيء.

يتزامن أفول شعب مع وضوح جمعي في أوجِّه.

وهي مصابة بالوهن، وعلى خرابها تدرب الغرائز «الوقائع التاريخية». الإنجليز شعب قراصنة، فبعدما نهبوا العالم بدؤوا يشعرون بالضجر. لم يغب الرومانيون من على سطح الأرض بسبب الغزوات البربرية، وليس أيضا بسبب الفيروس المسيحي، كان يمكن لفيروس أشد نفاذًا أن يكون مبيدا لهم.

فما أن وجدوا أنفسهم معطلين لم يستطيعوا مواجهة الزمن المقعر، لعنة محتملة بالنسبة لمفكر، لكنها تعذيب لا مثيل له بالنسبة لمجموعة. ما الذي يعنيه زمن حر، زمن عار وخال، أن لم يكن مدة بلا محتوى ولا جوهر. فالزمنية الفارغة تميز الضجر.

يعرف البحر مثاليات؛ أما الغسق فلا يعرف سوى أفكار، وفي موضع الشغف، هناك الحاجة إلى التسلية. لقد تمكنت العصور القديمة من التعافي من «مرض العصر» الذي يميز كل

أفول تاريخي وذلك بواسطة الايبقيورية[37] والرواقية[38]. مجرد وسيلة وقتية،

مثل تعدد الديانات للتوفيقية الإسكندرية، الذين غلفوا، زوَّرُوا أو حرفوا الشر دون أن يقضوا على حدَّته. عادة ما يقع شعب ممتلئ فريسة كُفَّارٍ، تماما مثل شخص «عاش » و«عرف» أكثر من اللازم.

من المستحيل أن نحب الله دون أن نكرهه! لو نثبت عدم وجوده في دعوى قضائية غير مسبوقة، فلا شيء قد ينفي غيظ - مزيج من الوضوح والعته- من هو في حاجة إلى الله ليكتم ظمأه للحب وفي الغالب الكراهية. وفي النهاية ماهي، إن لم تكن لحظة على عتبة دمارنا الذاتي؟ وليس مهما إن كان موجودا أم لا، لمدة طويلة ومن خلاله يجد وضوحنا وجنوننا توازنهما كما أننا نهدأ ونحن نُقيِّده بشغف قاتل.

هذه الحاجة لتدنيس القبور، تهييج المقابر في قيامية ربيعية! وحدها الحياة موجودة، رغما عن مطلق الموت! يعرف هذا القرويون، الذين يتزوجون في المقابر مُهينين بتنهداتهم الصمت العدائي للموت.

(37) . الأبيقورية : مذهب فلسفي يقوم على أن اللذة هي وحدها الخير الأسمى والألم هو وحده الشر والمراد باللذة هو التحرر من الاهتياج العاطفي وهو ما لن يتم إلا بممارسة الفضيلة.

(38) . الرواقية : مذهب فلسفي يدعو إلى تقبل الحاضر وكبح النفس بعدم الانصياع إلى اللذة أو الخوف من الألم وسوف يساعد التناغم مع الطبيعة على ذلك.

أي مرقى ذاك، أن تعلن شهوتك فوق صخرة مقبرية!

من المستحيل تحديد في أي لحظة دقيقة قد يفاجئك توقع المحاكمة و يملأ لحظاتك.

يتملك بك إحساس نادر وأنت وسط التفاهات المرهقة، حركات بلا معنى ومستويات وقحة للمزاج، وغالبا ما يكون ذلك في تلك الحانات الصغيرة لا غير

أن تمتلك القدرة على التحدث و لساعات طويلة حول أشياء مسلية أو لا جدوى منها مع ناس تحتقرهم، دون أن تترك لهم فرصة ولو للحظة أن يستشفوا، أي فارق لا معنى له يفصلكما عن المحاكمة، أي مسافة تبعدكم عن العالم، أي نداءات تحركك! ذاك الذي لا يرتاب من معنى هذا التوقع يأثم بسبب الكثير من الخجل ويكشف عن نفسه غير قادر على فهم هذه الاستفزاز الأخير، الحاجة لمواجهة المالك للمرة الأخيرة بحماقة متفق عليها، مؤلف كون لا طائل من ورائه.

ليس المسيحي في حاجة إلى أن يرتجف يوم الحساب. فالمسيحية لم تفعل سوى استثمار خشية لتكسب منها أقصى ما يمكن من الربح من أجل ربانية لا دقة فيها جعلت من الهلع حليفها.

يبدو الحساب الأخير بالنسبة للوعي كما لو أنه لحظة غير متوقعة و غير محددة، أو بالأحرى كما لو أنها فترة رعب. هل

تعتقد أنه بإمكانك أن تذرع المطلق، خائفا وحقودا، حين وبغتة ينبثق عائق جديد! الحساب! ولو! هل يريد الله أن يُميتنا مرة أخرى؟

الحجة الوحيدة ضد عدم الموت هو الضجر. بل من هنا تصدر كل إنكاراتنا.

إنني أبحث عما هو. ليس هناك موضوع محدد لبحثي. فلنذهب إلى الحساب بوردة في العروة!

أصغي إلى الصمت ولا أستطيع أن أخنق صوته:

كل شيء انتهى. لقد ترأست نفس هذه الكلمات بدء العالم، بما أن الصمت قد سبقها...

كل شيء طائش - بما في ذلك ما هو نهائي. وحالما نصل إلى هذا الاستنتاج، نخجل من أي سؤال رئيسي.

رغم أن فكرة الحساب معقولة إلى أبعد حد، مبعث إثارة مفتوحة المثقف، فهي على الأقل تصلح لتفسير وتعريف العدم. وليس يهم إن جاءت على شكل ديني أو مدنس، تقديم حل نهائي للتاريخ فذلك من شأنه أن يؤسس للفكر البشري. هكذا تكتسي الفكرة الأشد سخافة صيغة الحتمية.

التهكم هو تجربة لكشف فقدان جدية الوجود. يُحوِّل الأنا العالمَ إلى عدم، ذلك أن التهكم لا يتوفر على مشاعر القوة إلا

عندما يكون كل شيء معطلا. وما البعد التهكمي إلا خدعة هذيان حالات الكِبَرْ. لكي يواسي الأنا نفسه بسبب عدم الوجود، يصبح هو الكل. يصبح التهكم جديا حين يبلغ مرتبة الرؤيا العنيدة للاشيء.

الشغف بالمطلق داخل روح شكوكية! حكيم مُطَعَّم على أجذم. كل ما هو غير مطلق أو دودة الأرض إنما هو خلاسي. وبما أنني لا أستطيع أن أكون حارسًا للامتناهي، تبقى لي حراسة الجثث.

أفكر في كيفية تأويل الدموع، كمحاولة لاكتشاف أصلها بما في ذلك ترجمتها الممكنة. للوصول إلى أين؟ لفهم قمم التاريخ وإعفائنا من «وقائع»، بما أننا ستعرف في أي لحظة وفي أي ظرف نجح الإنسان بالترفع عن نفسه. تهب الدموع صفة الخلود للصيرورة، بل تنقذها. هكذا ،كيف يمكن أن تكون هناك حرب بلا دموع؟ تُغَيِّر الدموع من مظهر الجريمة وتبرر كل شيء. إن وزنها وفهمها بمثابة العثور على سيرورة تمشي الكون. والمعنى من هذا التعمق هو أن يقودنا نحو الفضاء الذي يربط الانتشاء باللعنة.

شَكِّي الرهيب في أن الله مشكلة ثانوية؛ ذلك ما يفصلني عن الحياة وعن كل شيء. هذا الارتياب -جلي إلى حد الجنون - يدفعك إلى أن تكتف ذراعيك: ما الذي تبقى لي أن أفعله.

هل نالت تفاهة الوجود من الله ذاته؟ وهل أصابت علة الجوهري الجوهر؟ لا بد أن الجوهر الإلهي قد تعفن من زمن قديم لنضع صحته وفضائله موضع الشك. الله غير موجود الآن؛ حتى الكبائر التي اقترفناها لن تنعشه. ففي أي ملجأ يستريح إذا؟

لقد فهمت: مطلق يعتني بأحوال صحته. وفي النهاية لم يربح العالم سوى ألوهيّة منهوكة.

كل الأجراس تدعو للحساب. منذ قرون عدة وهي تعلن النهاية، مغلفة باحتفالاتها الاحتضارَ الذي تدعونا إليه المسيحية. فأنت الآن ناضج للمحاسبة مادام يتردد في داخلك صدى دعواتها. لا رجعة في هذا الحكم حتى وإن كان صوت الأجراس مصدِّعا.

أشد المسيحيين وضاعة يتحاور الند للند مع الله. تتسامح الديانة مع هذه الأجواء العظيمة والتي لولاها لانتهى الإنسان وضيعًا. لهذا السبب يمجد الإلحاد الحرية البشرية، بالتحاور بصوت عال مع الله، يعلّي من قيمة الكبرياء إلى مرتبة الخالق. فالذي لم يزدر المبدأ السامي هو مُهيّأ للعبودية.

فنحن لسنا نحن حقيقة، إلا إذا كنا في وضع يتيح لنا إهانة الخالق.

الذي لم يكن بطبعه سعيدا لن يعرف سوى تلك السعادة التي

تخلفها أزمات اليأس. إنني أخاف من سعادة غير محتملة ومن جرائها أكون ضحية، منتقما من ماضي الرعب، انتقم من كل شيء، بما في ذلك سوء الحظ أنني عشت.

فمن وجهة نظر مسيحية، المجذوم الذي يحب جذامه أفضل ممن يقبلها، المحتضر الذي يرتجف أفضل ممن يستكين، اليأس أفضل من الانتقال...

لقد وفرت المسيحية الظروف الملائمة ل«ثقافة» القديسين من خلال التشريع للحُمَّى، لقد رفعت من درجة حرارة الإنسان...

«عصر البراءة» كلما تأملنا لوحات **رينولدز**[39] زادت داخلنا قناعة أن هناك خيبة واحدة : التوقف عن أن تكون طفلا. يعكس الفردوس في الماضي هذه المرحلة من حياتنا، يواسينا في طفولتنا المغمى عليها. شاهدوا هذه اليد الأنيقة التي يشدها الطفل إلى صدره، كما لو أنه يدافع عن سعادته! هل فهم رينولدز كل هذا؟ إن عينيه المفكرتين تعبران عن موجة أمام ما يجب خسارته؟ الأطفال مثل العشاق، يحدسون حدود السعادة.

أن تحب الدموع دائما، تلك هي البراءة العدمية. الكائنات التي تعرف كل شيء ولا تعرف أي شيء. الفاشلون والأطفال.

الإخفاق هو اشتداد الوضوح؛ يصبح العالم شفافا في العين

---

(39) . جوشو رينولدز :1723-1792 رسام بورتريهات انجليزي.

العنيدة، لمن هو عقيم ومتبصر، لا ينخرط في أي شيء. أمِّيٌ كما هو، يعرف الفاشل كل شيء، يرى من خلال الأشياء، يكشف ويلغي كل الخلق. الفاشل هو **لاروشفوكول**[40] تنقصه العبقرية.

لو كنت شاعرًا، ما كنت لأعترض على أن يأخذ نيرون بالثأر. كنت أعرف ماذا يجب أن أكتب حول ماليناخوليا الأباطرة المجانين. بدون شخص مثل نيرون تفتقد الإمبراطورية للأسلوب، انحطاط تفتقر كل منفعته.

لا أحد قوَّى الرغبة في تدمير غرائزه ككائن مثل المعلم **ايكهارت** عدم انخراطه في الخلق وصل به إلى عبثية هذا الانفصال، شرط أساسي للتعلق بالله. بين حياة وخلود يضحي دون تردد بالأولى، مدققًا بشكل نظري وتطبيقي في التباين الأليم بين هاتين المفردتين.

لماذا حاولوا بأي شكل من الأشكال إضافة شيء ما لما هو كنسي والذي يحتوي في الأساس على كل شيء؟ فما هو غير موجود في الكنسي ملطخ بالرعب. «لذلك تحول قلبي في اتجاه اليأس» نحو الحقيقة.

... « ذلك أن الكثير من الحكمة ينمي مرارتنا والكثير من

---

(40) . فرنسوا دو لاروشفوكوا:1613-1680كاتب مذكرات فرنسي مشهور أثارت كتاباته الكثير من الضجة بعد موته.

المعرفة يضاعف آلامنا».

الكنسي عرض سلع، كشف حقائق تقاومها الحياة بكل عناد، هذه الحياة المنخرطة في كل ما هو «عبثي».

هذا الخوف المباغت، الذي ينبثق من لا جهة محددة، والذي ينمو داخلنا ويؤكد انبتاتنا، ليس «مرضا نفسيّا»، هو لا تنتمي إلى الروح إلا في المرحلة الأخيرة.

تردد صدى عذابات الفردانية، الصراع القديم بين الفوضى والشكل. لم أستطع نسيان مقاومة المادة للعليّ القدير.

عدم الانخراط في الحياة يُولِّد رغبة في الثبات. بدأنا نرى العالم في أشكال متصلبة، خطوط متوقفة، دوائر ميتة. حين تفتقد الشعور بهذا الفرح الذي يغذي الصيرورة فكل شيء ينتهي في تناظر. ما كنا وليس الذي سميناه ب«الهندسي» لأنواع متعددة من الجنون، إلا مبالغة في هذا التهيؤ للجمود الذي يرافق أي حالة توتر. تخون الرغبة في الأشكال ميلًا متكتمًا للموت. كلما كنت متضايقًا أكثر، تجمدت الحياة أكثر، في انتظار أن تتحول إلى جليد.

«الألم هو السبب الوحيد للوعي» دوستويفسكي.

ينقسم الناس إلى صنفين :الذين فهموا هذه المقولة، والآخرون.

إن لم تفكر بكثافة في الموت، فأنت شخص بائس، مهما كان مستوى ثقافتك. سيظل الحكيم الكبير أقل مستوى من الأِمِّي الذي ما انفكت تلازمه الأسئلة النهائية. فالعلم عموما يُبَلِّد الأذهان باختزال وعيها الميتافيزيقي.

حين تذرع الشوارع جيئة وذهابا، يتبدّى لك العالم موجودا باعتباره شرا. لكن انظر من خلال النافذة - وسوف يصبح كل شيء غير واقعي. كيف أمكن لشفافية بلور أن تفصلنا عن الحياة بهذا الشكل؟ وفي الحقيقة فإن نافذة تفصلنا عن العالم أكثر من جدار سجن. كلما أطلنا النظر في الحياة ينتهي بنا الأمر لنسيانها.

كلما قرأت المتشائمين أكثر، أحببت الحياة أكثر.

إثر كل قراءة **لشوبنهاور** أتصرف مثل شاب مخطوب لفتاة. لشوبنهاور الحق في الاعتقاد أن الحياة مجرد حلم، غير أنه يقع في خطأ تحليلي، فعوض تشجيع الأوهام، نجده يعريها تاركا المجال للاعتقاد بأن هناك شيئا آخر موجوداً خارجها.

من الذي بإمكانه أن يحتمل الحياة، إن كانت حقيقية. إن كانت حلمًا؛ فهي مزيج من السحر والرعب الذي نعانيه. فكل مشهد والطبيعة عموما هما هروب خارج الزمن، ومن هنا تولد إحساس أن لا شيء قد وُجد فعلا، عندها نستسلم في كل مرة لحلم المادة التي هي الطبيعة.

مخالطة الفنانين، عذاب لذهن جلي، نزيف لا يتوقف.

إن بقيت محتفظًا بدم احتياطي لجراح أخرى بعد ما عشت مفتوح العينين بين أشباهك، فذلك يعني أنك لم تفهم شيئا من كارثتنا كلنا.

بقدر ما نكره الناس نتحرر. لا بد أن نكرههم للانخراط في صيغ الكمال غير الضرورية، للتمزقات والغبطات، خارج الزمن، خارج التاريخ. فكل احتدام للظاهرة الإنسانية هناك ما يشبه التمييز والرغبة.

أن تمقت الإنسان هو ما يجعلك تعتبر الطبيعة اتجاه حرية، تخل، وليس على الطريقة الرومنطيقية، كما لو أنها مرحلة في أوديسة الذهن. وبعد أن انحط مقامنا بانشغالنا بالصيرورة، فها هو الوقت المناسب لنعيد اكتشاف هويتنا الأولى التي كسرناها بهذيان العظمة الذي أصاب الوعي. لا أستطيع أن أتأمل أي مشهد دونما الشعور بالحاجة إلى تدمير كل ما هو غير كوني بداخلي. نوستالجيا نباتية، حسرات أرضية، الرغبة في أن أكون نبتة خاضعة لدورة الشمس الفانية.

هناك في الحياة ما يشبه هستيريا نهاية الربيع.

لست شقيًا إلى درجة أن أكون شاعرًا...

لست لامباليًا إلى درجة أن أكون فيلسوفًا...

لست إلا جليًا، وهو سبب كاف لأكون مُدانًا.

«إنني أحيا بما يموت به الآخرون» (مايكل آنجلو).

ليس هناك أي شيء آخر يمكن إضافته للعزلة.

هذا العالم ليس سوى مبرر. نحن في حاجة إلى التفكير في شيء ما - ولقد اخترناه كمادة لرد الفعل. ولا ينقص الفكر فرصة تدميره.

بوذا متفائل. ألا أنه لم يلاحظ أن الألم يُعرِّف الكائن باللاكائن؟ فالوجود والعدم لا يكونان إلا من خلال العدم. وماهو الفراغ، إن لم يكن طموحا مجهضًا بألم؟ تشبه **النرفانا**[41] حالة من الألم الأشد أثيرية، تشبه درجة أعلى روحانية من العذاب. قد يعني الغياب عجز الوجود لكن ليس الألم. ذلك أن الألم يسبق كل شيء بما في ذلك الكون.

(موهبتي كإنسان) لا أعتقد أنني ضيعت ولو فرصة واحدة لأكون حزينا.

لم أشعر أني أموت فعلاً إلا من خلال نوبات شغفي بالحياة. الخوف وحده يربطني بالعالم أكثر من الامتلاء الشهواني الذي يرافق لحظات هذا الإغماء، لحظات التخلي الغريبة، عندما يتم تفريغ المعاني لامتصاص الحياة التي تجتاحنا من كل المسام، تكتم الكلمات والأفكار.

(41) . نيرفانا :طقس من طقوس البوذية وهي حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة من التأمل العميق فيتوقف تأثره بالخارج وما يحيط به والهدف من ذلك شحن الطاقات الروح لبلوغ أعلى درجات الانتشاء ولا يصل الإنسان إلى نرفانا الا بعد التحرر من الكارما.

إذا لم أجرَّ معي موتي في آمالي وخيباتي، سأنسحب حذو الحيوانات واستسلم للنوم الحميد للاوعي. الموت...ألست مشدودا إليه من خلال طموح سري، أسف نباتي، اتفاق سري مع الذبذبات الجنائزية للطبيعة؟ - أليس هذا في الحقيقة كبرياء، رفض إنكار أننا سنموت؟ فلا شيء مدعاة للتمجيد أكثر من فكرة الموت - فكرة، وليس الموت. رفض معرفة أنني سأموت- لن أوافق على ذلك مهما عشت بل انتظر الموت لأنسى هذه المعرفة.

يستحضر الرعب من كل شيء، كائنات أو أشياء رؤى مقفرة. نتحسر على قلة الصحاري في الأرض، نريد أن نُمهِّد الجبال، نحلم بمونغولي في ساعات غروب عنيدة.

يرى النساك المسيحيون أن الصحراء وحدها بلا خطايا ويقارنونها بالملائكة. وبلغة أخرى ليس هناك طُهر إلا حيث لا شيء ينبت.

الرغبة في إذلال الذات من خلال احتقار الآخرين، أداء دور الضحية، الوحش، الفظ... إننا على درجة من الدونية تجعلنا نشعر بالحاجة إلى القيام بأي مهمة «بنَّاءة»، وتثبيت وجود «الآخر». غير أن الآخر غير موجود، هذه النتيجة تفرض نفسها علينا وتبعث فينا شيئًا من الارتياح. إن تكون وحدك، وحدك بشراسة، هو ذا الأمر المطلق الذي يجب الامتثال له. الكون

فضاء مقفر والكائنات غير موجودة إلا من أجل إثبات ودعم عزلتنا. فلم يحدث لي أبدا أن التقيت بأحد، فقط تعثرت بظلال شبيهة بالقرود.

تأتي حالات هلعنا من الليل الذي لا ينتهي والذي شنَّ العليُّ القدير ضده أولى حروبه. لقد كان نصف انتصار: فلم ينجح سوى في فرض النهار بالتقاسم. وتعود للإنسان مهمة ملء النهارات - غير أنه لم يفلح في ذلك سوى من خلال تفكيره. نحن ننام ليس من أجل أن نرتاح ولكن كي ننسى الليل وانتصارنا المزيف.

نحن نعيش في ظل خيباتنا وجراحات حبنا لأنفسنا.

شهيّتنا القوية المهتاجة إلى حد الجنون لن تشبع في العالم. لا يوجد على الأرض فضاء للغريزة الخلاقة وهيجانها الملتهم.

إنما، نبحث في الدين عن عزاء لإخفاقات قوتنا الفاتحة. بإضافة عوالم أخرى لعالمنا هذا، يمكننا أن نأمل في انتصارات عجيبة. نصبح متدينين خشية أن تختنق في الحدود اللعينة لهذه الأرض. زيادة على ذلك، أن روحًا غير قابلة للترويض تعرف عدوًا وحيدا لها: الخلود. فهو الوحيد الذي لا بد من القضاء عليه، آخر موقع محصن لغزوه.

نتقاسم السلطة، نحن والله بالتناوب. ومن هنا يتفرع تصور ان للعالم لا شيء بإمكانه أن يعقد صلحًا بينهما. والله، ليس

أفضل منا غير مستعد لتقديم تنازلات.

لا أستطيع، أحيانًا، أن أمنع هؤلاء الفلاسفة من تفسير الروابط بين الروح والجسد، فيفترضون تدخلاً ربانيًا في كل حركة. غير أنهم بقوا عند منتصف الطريق. لم يشعروا أنه لولا هذا التدخل يمكن للعالم أن يقع في العدم، يتهشم قطعًا ويتدحرج في الهاوية. بالنسبة إليهم، لا يستطيع الله التخلف عن تقديم دعمه لهذا التوازن المؤقت.

يتدخل الله في كل شيء، هو حاضر في أدق التفاصيل. هل يمكننا أن نبتسم بدون تدخله؟ المؤمنون الذين يتوسلون إليه عند كل خطوة يعلمون جيدًا أن العالم مستسلم لنفسه سيزول قريبًا.

وبالأساس ما الذي سوف يحدث لو أن الله ينسحب في لامبالاته الأولية.

من المستحيل، تسيير الحكم معه. من الممكن تعويضه أو خلافته، لكن من المستحيل الجلوس إلى جانبه، لأنه لا يحتمل كبرياء الكائن. هكذا إذا هو الإنسان: فإما أن يضيع في الألوهية أو يستثيرها. لا أحد إلى حد اليوم كان «منطقيا» في حضوره. أن يقوم مقام الله ذلك هو الطموح الدائم للانسان.

غير أن خيبتنا لا تكون شديدة الحساسية إلا في هذا التذبذب العجيب الذي يلقي بنا بعيدا عن الله، ليعيدنا إليه بعد ذلك،

بالتناوب بين الهزيمة والخلق الذي يترجم مصيرنا العضال.

«غالبا ما أفكر في أولئك النساك بالطيبايد[42]، الذين يحفرون قبرًا لسكب الدموع فيه ليلاً ونهارًا.

حين يسألونه عن سبب أساهم وشجنهم يجيبون بأنهم يبكون أرواحهم.

القبر في شساعة الصحراء واحة، موضع ودعامة.

نحفر قبورنا ليكون لدينا نقطة ثابتة في الفضاء. ونموت كي لا نضلَّ.

لماذا تذهب للتنقيب في ذاكرتي؟ وما الداعي أن تتذكرني؟ هل بإمكانك أن تقدر يوما على مقارنة سقوطك بحضور رعبي في هلعك؟

التفت عن الخلق!

انسني، لأني أريد أن أكون حرًا - ولا تخش شيئا، لن أوليك أي اهتمام. أن يموت أحدنا من أجل الآخر، ما الذي سوف يمنعنا من فعل ما نشاء في هذا المدفن المتروك، وأنك في جهلك السماوي عمَّدت الحياة؟

---

(42) منطقة صحراوية في جنوب مصر. أوى إليها الكثير من المسيحيين للإفلات من الحياة الكنيسة والتزهد وكان بعض المتعبدين فيها قد حفروا حفرا لملئها بالدموع من شدة خشيتهم من الله.

الحياة ضياع للروح: هي ذي الكلمة الأخيرة لكل ديانة.

لم يعد عندي أي شيء أتقاسمه مع أي أحد. باستثناء بعض الوقت مع نفسي.

كلما كانت المفارقات حول الله أجرأ، فهي تعبر بشكل أفضل عن جوهره. بل إن الشتائم أقرب إليه من علم اللاهوت أو التأمل الفلسفي. توجيه هذه الشتائم إلى الناس يجعلها مبتذلة إلى أبعد حدّ وبلا تبعا، موجهة نحو الناس، يتمرن وقحة إلى أبعد حد أو بلا تبعات؛ لا يتحمل الإنسان أي مسؤولية، خالقه هو منبع الخطأ والخطيئة.

هبوط آدم إلى الأرض هو قبل كل شيء كارثة إلهية. لقد استثمر الخلود في الإنسان كل نقائصه، كل عفونته وكل إخفاقاته. ظهورنا على الأرض أنقذ الكمال الإلهي. والذي كان عند العلي القدير، «وجودًا»، تعفنا مؤقتًا، سقطة، انساب في الإنسان، وهكذا أنقذ الله العدم. بفضلنا نحن القائمين بدور مكبّ النفايات، تمكن هو من البقاء فارغا من كل شيء..

... لهذا السبب، نشتم السماء، فذلك من حق الذي يتحمّلُ عبء الآخر. يرتاب الله مما يحدث لنا - وإن كان قد أرسل ابنه، ليخفف عنا بعض آلامنا، لقد فعل ذلك ندمًا، وليس رأفة بنا.

كل ما يصبو في داخلي إلى الحياة يفرض أن أرفض الله.

لقد بدأنا نعتقد من خلال كبريائنا- كل ما هو «مُشرِّف» هو ممتع. فإذا لم نشغف به، فبالضرورة ننشغل بالناس. هل يمكن أن تسقط أقل من هذا؟

لا يمكن أن نتخذ قرارا ما بين الحرية والسعادة. فالألم واللانهائي من جهة، من جهة أخرى الرداءة والأمان. الإنسان حيوان متكبر جدا ليقبل بالسعادة ومنحط جدًا ليزدريها.

أليس دالاً أن «السعادة » تُوَلِّد الغثيان؟ من ذا الذي يفتخر أنه لم يتألم. الضيق الذي تشعر له أمام البؤساء ما هو إلا تعبير عن اقتناعنا أن الألم يمثل العلامة الفارقة، بل أصالة كل كائن. لأن المرء يصبح إنسانًا ليس بانحراف العلم، الفن أو الدين، بل من خلال الرفض الواضح للسعادة، لعدم قدرتنا العميقة على أن نكون سعداء.

كلما كان أملنا أقل، صرنا أكثر كبرياء، إلى درجة أن اليأس والكبرياء يمتزجان ببعض، غير مميزين الواحد من الآخر حتى بالنسبة للملاحظ المتبصر.

يمنعنا الكبرياء من أن نأمل، من البحث عن مخرج خارج هاوية الأنا، واليأس يتخذ هيئة معتمة من دونها يصبح الكبرياء لعبا وضيعًا أو هو وهم داع للرثاء.

وتبعا لوظيفة يأسنا، لا بد أن يواصل الله وجوده ولو كان هناك أدلة يتعذر دحضها لعدم وجوده. والحقيقة فإن الكل

يدافع عنه وضده، لأن كل شيء يُكذِّبه ويؤكده. الخطيئة والصلاة يمكن تبريرهما في اللحظة نفسها بالتساوي. حين تنطق بهما الوقت نفسه، تقترب من الممثل الأعلى للمبهم.

إن بحثت عن كلمة تُبهجني وتُحزنني في نفس الوقت، فلن أعثر إلا على كلمة واحدة: النسيان.

أن لا أتذكر أي شيء، أن أنظر دون أن أتذكر، أن أنام بعينين مفتوحتين على الغامض!

هذه القوة التي تجعلك تضم الله إلى قلبك كما لو أنه كائن عزيز يحتضر، لاستخراج منه آخر دليل للحب، لتجد نفسك بعد ذلك مع جثته بين ذراعيك...

أي متعة أن يكون لديك متصوف ألماني، شاعر هندي أو أخلاقي فرنسي، للاستعمال في المنفى المعتاد!

أن تقرأ ليلاً ونهارًا، تبتلع مجلدات، هذه المسكنات، فلا أحد يقرأ ليتعلم لكن لينسى، الصعود إلى حيث منبع الوضيع من خلال إنهاك الصيرورة وأفكارها الثابتة!

ليس من السهل والممتع التقاتل معه دون توقف.

ما إن تجد نفسك في هذا الاتجاه، فبموجب أي اندفاع تخسر كل تدبير وكل حيطة. غطرسة- اعتداد المخلوق. وعي يدفع نحو الفتنة، يكنس الوضاعة، ويحول المصير إلى تراجيديا.

سيكون التاريخ غير معقول، من دونه، وهو حافز حالات جنوننا ودناءاتنا. في تعبيره النهائي. العجرفة اغتصاب لا نهاية له. ذلك الذي عاشه إلى آخر لحظة لا يمكن أن يكون له سوى منافس وحيد...

كل ما ينخرط في هذا العالم مبتذل. هل هناك ديانة دونية...القشعريرة المقدسة الأشد بدائية تمنح نَفَسا للمظاهر. يبدو النعيم في العالم رمادا؛ -في الماوراء العدم هو النعيم.

بشيء من اللطافة كان من الممكن أن نجعل الله في سعادة أشد. لكننا تخلينا عنه، وهو الآن أكثر وحدة مما كان عليه قبل بداية العالم.

وكما قال المعلم **إيكهارت**، لا شيء يُنفِّر من الله مثل الزمن أو الانخراط فيه ببساطة. الطامعين في الأبدية، الله والمعلم إيكهارت معه - يحتقران حتى «رائحة الزمن وطعمه» الرفض الإرادي والجلي للمطلق هو اتجاه مقاومة الله - لحساب الوهم، أي جوهر كل حياة.

هل سأغفر للأرض أنها اعتبرتني من سكانها بوصفي دخيلًا فقط؟

يتأوه الفردوس في قاع الوعي، في الوقت الذي تبكي فيه الذاكرة.

وهكذا حين نفكر في المعنى الميتافيزيقي للدموع وللحياة كما لو أنه تواتر حسرة ما.

نهاية

إميل سيوران

دموع وقدّيسون

«دموع وقديسون» هو الكتاب الرابع لإيميل سيوران بعد «على مرتفعات اليأس» و«كتاب الأوهام» و«تجميل رومانيا» وقد ألف سيوران «دموع وقديسون» سنة ١٩٣٧ وعمره ٢٥سنة غير أنه أعاد صياغته بالكامل سنة ١٩٨٦ حين قامت الشاعرة الرومانية ساندا ستولوجان بترجمته إلى الفرنسية ويواصل سيوران ترسيخَ أفكارهِ في هذا الكتاب الذي جاء في شكل نص واحد، كتلة مضمومة بلا فقرات ولا فصول ولا تقطعات، فهو فكرة واحدة قام سيوران بتفكيكها والتعمّق في تحليلها، والتي شرع في طرحها منذ كتابه الأول «على مرتفعات اليأس» تتعلق بالوجود والعدم والدين والفن عموما محافظا على الأسلوب نفسه في الكتابة الذي يتميز بالجمل القصيرة المكتنزة المشحونة بالدلالات، والتي تأتي في شكل التماعات برقية، مكثفة مقتصدة في معجمها اللغوي لا تعتمد الاصطلاحات الفلسفية المعهودة عند الفلاسفة ولا توغل بعيدا في التحليل، هو «التفلسف شعريا» فسيوران يسعى إلى تحفيز خيال القارئ وعقله من خلال أفكار يصوغها في شكل صور شعرية. وهكذا كان رأي مترجمة هذا الكتاب حين قالت «هناك عند كل كاتب صورة مفتاح، تستجيب لوسواس داخلي عميق وكاشف».




ISBN: 978-603-91331-5-5
9 786039 133155

WWW.PAGE-7.COM